Soroud (10) (2026) : 195 - 226

bayna an-naṣṣ wa-l-qirāʾa: taʾammulāt fī an-naqd al-adabī : mašrūʿ Kīlīṭū namūḏağan

Between Text and Reading: Reflections on Classical and Modern Arabic Literary Criticism :Abdelfattah Kilito's Project as a Case Study

بين النَّصّ والقراءة:تأمُّلات في النَّقد الأدبيّ مشروع كيليطو نموذجًا

مراد تدغوت
أستاذ باحث / ألمانيا

الملخص: يتناول هذا البحثُ مشروع **عبد الفتَّاح كيليطو** في قراءة التُّراث العربيِّ الأدبيِّ، من زاوية موقعه داخل النَّقد الأدبيِّ المغربيِّ المعاصر، وما أثاره من نقاشات وانتقادات عربيَّة ومغربيَّة. ينطلق من فرضية مُفادها أنَّ كتابة **كيليطو** لا تنتظم ضمن نموذج منهجيٍّ إجرائيٍّ مغلق، بل تؤسِّس لما يمكن تسميته "أخلاقيَّة القراءة"، تجعل من فعل القراءة نفسه موضوعًا للتَّفكير والتَّحليل. قد ركَّز المقال على تحليل طبيعة الانتقادات الموجَّهة إلى **كيليطو**، مبيِّنًا أنَّ كثيرًا منها حاكمتْ مشروعه بمعايير لا ينتمي إليها، كالمطالبة بالتَّقعيد المنهجيِّ أو بالوظيفة الإيديولوجيَّة المباشرة. في مقابل ذلك، أبرز البحث إسهام **كيليطو** في تجديد الدَّرس التُّراثيِّ عبر نقل السُّؤال من مضمون النَّص إلى آليات اشتغاله، ومن تاريخ الأفكار إلى ديناميَّة اللُّغة والسَّرد. كما ناقش المقال أثر مشروعه في الجامعة المغربيَّة، ودوره في تشجيع التَّفكير النَّقديِّ القائم على الشَّكِّ والتَّأويل والانفتاح، دون القطيعة مع المعرفة التُّراثيَّة. يخلص البحث إلى أنَّ تجربة **كيليطو** تمثِّل نموذجًا ممكنًا لتحديث النَّقد الأدبيِّ في المغرب، الَّذي يقوم على التَّوازن بين الجماليَّة والتَّأويل والمعرفة التَّاريخيَّة، بعيدًا عن الاستلاب أو التَّقديس.

الكلمات المفاتيح:
عبد الفتاح **كيليطو**، قراءة التُّراث، النَّقد الأدبيُّ المغربيُّ، التَّأويل، السَّرد.

Abstract: This article examines Abdelfattah Kilito's critical project in reading the Arabic literary heritage, focusing on its position within contemporary Moroccan literary criticism and the debates it has generated in Arab, Moroccan, and Western contexts. The study is based on the assumption that Kilito's work does not aim to establish a closed methodological model, but rather articulates an "ethics of reading" in which the act of reading itself becomes the central object of reflection. The article analyzes the main criticisms addressed to Kilito, showing that many of them evaluate his work according to criteria foreign to his project, such as methodological formalization or direct ideological function. In contrast, the study highlights Kilito's contribution to renewing heritage studies by shifting critical inquiry from what the text says to how it works, and from intellectual history to the dynamics of language and narrative. The article also discusses the impact of his work on Moroccan academia and its role in fostering critical thinking grounded in doubt, interpretation, and openness, without abandoning historical knowledge. The study concludes that Kilito's approach offers a viable model for renewing literary criticism in Morocco, based on a balance between aesthetics, interpretation, and heritage knowledge.

Keywords: Abdelfattah Kilito, Heritage Reading, Moroccan Literary Criticism, Interpretation , Narrative.

تمهيد

شكل التُّراثُ النَّقديُّ العربيُّ القديم مرتكزا رئيسا في بناء الوعي الأدبيِّ العربيِّ ومنه استمد مناهجه وطرائق قراءته للنُّصوص، فمن بين مصنَّفات **الجاحظ** (ت 255هـ/ 869م) **وقدامة** (ت 337هـ/ 948م) **وابن طباطبا** (ت 322هـ/ 934م)، وامتداداتها البلاغيَّة والمنهجيَّة لدى **ابن رشيق** (ت 463هـ/ 1071م) **وحازم القرطاجَنِّي** (ت 684هـ/ 1285م)**وابن خلدون** (ت 808هـ/ 1406م)، تكوَّنت رؤية عربيَّة أصيلة للأدب تستند إلى مقولات بلاغيَّة وسياقيَّة وفلسفيَّة، لا تزال تمنح الباحث المعاصر مدارات واسعة للتَّأويل وإعادة الفهم. ويُعدُّ النقد المغربيُّ فاعلا أساسيا في إعادة قراءة هذا التُّراث، إذ انخرط في مقاربات نقديَّة تجمع بين الدِّقَّة التَّاريخيَّة والصَّرامة المنهجيَّة والانفتاح على المناهج الحديثة، ممَّا أتاح نشأة جيل من الباحثين الَّذين أعادوا التَّفكير في التُّراث بعيدًا عن القراءات الجزئيَّة و الانطباعيَّة.

وفي قلب هذا الحقل البحثيِّ، يبرز المشروع النَّقديُّ لـ **عبد الفتاح كيليطو** بوصفه أحد أهمِّ التَّجارب الَّتي أعادت اقتراحَ طرق جديدة لقراءة الأدب العربيِّ القديم، سواء اتَّفقت الآراء حوله أو اختلفت. لم يهدف **كيليطو** إلى مقاربة التُّراث بوصفه أثرًا لغويًّا أو تاريخيًّا فحسب، بل بوصفه حقلًا للتَّخييل والقراءة والتَّمثيل، يتحاور فيه القارئ المعاصر مع نصوص قديمةعلى وفق آليات سرديَّة وبلاغيَّة واستعاريَّة تتجاوز الحدود التَّقليديَّة للفيلولوجيا. مكَّن هذا المنظور مشروعَه من أن يُثبت وجودَه داخل الدِّراسات

النَّقديَّة الحديثة، سواء في المغرب أو خارجه، وأن يحظى باهتمام لافت في الأوساط النَّقديَّة الغربيَّة التي تلقَّت أعماله المكتوبة بالفرنسيَّة بوصفها مداخِل جديدة لفهم النَّصِّ العربيِّ الكلاسيكيِّ.

لكن كل هذا لا يُلغي طبيعة الإشكال الذي يرافق مشروعه؛ فتنقُّله بين لغتين، واعتماده الكبير على أدوات النَّقد الغربيِّ، وابتعاده عن النَّسق الأكاديميِّ التَّقليديِّ، كلُّها عوامل جعلت من قراءته للتُّراث الأدبيِّ موضوعًا للنِّقاش والجدل. فبين مَن يرى أنَّه أعاد للأدب العربيِّ القديم أَلَقَه عبر قراءة تخييليَّة واعية، ومَن يرى أنَّه يحمِّله ما ليس فيه، أو أنَّه يقرأه بعيون غربيَّة (متغرِّبة) موجَّهة للقارئ الغربيِّ. وبهذا يبقى مشروع **كيليطو** مجالا خصبا لإعادة التَّفكير في علاقة الباحث المعاصر بالتُّراث، وحدود الإبداع النَّقديِّ في مجال العلوم الإنسانيَّة.

ومن هنا تأتي أهمِّية هذا المقال؛ إذ يسعى إلى مساءلة مشروع **كيليطو** في ضوء التَّحوُّلات التي يعرفها البحث العلميُّ في المغرب، وتجديد قراءة النَّقد العربيِّ القديم، واستجلاء ما يُتيحه هذا المشروعُ من إمكانات، وما يطرحه من إشكالات، داخل توجُّهات العدد العاشر من مجلة سرود حول وضع العلوم الإنسانية وآفاقها.

1 – الإشكالية

تتبدَّى القراءة المعاصرة للتُّراث النَّقديِّ العربيِّ القديم في المغرب وكأنَّها واقفةٌ على عتبة حَرِجة؛ إنَّها عتبةٌ يتنازعها من جهة إرثٌ ثقيل يستوجب فقهًا دقيقًا لمفاهيمه ونسقه البلاغيِّ، ومن جهة أخرى ضرورات البحث العلميِّ الجديد الَّذي يحاور التُّراث من منظور مناهج حديثة (سرديَّة ولسانيَّة وتأويليَّة). وفي هذا الفضاء المتوتِّر بين القديم والجديد، يظهر مشروع **كيليطو** بوصفه تجربة خاصَّة، لا لغرابة لغته فحَسْب، ولا لانتقاله بين العربيَّة والفرنسيَّة، بل لأنَّه أعاد طرح سؤال العلاقة بين النَّقد العربيِّ القديم ورؤى العلوم الإنسانيَّة عبر طرح يُدخل النُّصوص القديمة في حوار مع الرَّاهن، ويكشف قابليَّتها الدَّائمة للتَّجدُّد وإعادة القراءة.

بيد أنَّ هذا المشروع، على فرادته، يطرح إشكالات عميقة تتجاوز تقويم المنهج والأسلوب، لتتساءل عن حدود الممارسة الإنسانيَّة في قراءة التُّراث الأدبيِّ العربيِّ، ومدى قُدرة المقاربات الحديثة على تجديد النَّظر إليه دون تفريط في جوهره؟ وهل يشكل مشروع **كيليطو** نموذجًا لإعادة تأسيس البحث الأدبيِّ المغربيِّ في ضوء تحوُّلات العلوم الإنسانيَّة، أم هو تجربة خاصَّة لا يمكن تعميمها على الدَّرس النَّقديِّ ولا على واقع تدريس الأدب والبلاغة والسَّرديات العربيَّة في الجامعة المغربيَّة؟

وتأتي هذه التَّساؤلات في سياق أوسع، يفرضه النِّقاش العالميُّ حول مستقبل العلوم الإنسانيَّة، وعلاقتها بالهُوية الثَّقافيَّة، وبوظائف البحث الأدبيِّ في عصر يزداد انشدادًا إلى المعايير التِّقنية. وهنا يبرز السُّؤال الرَّئيس، ألا وهو: إلى أيِّ حدٍّ ينسجم المشروع النَّقدي لـ **كيليطو** مع حاجات البحث العلميِّ المغربيِّ في حقل العلوم الإنسانيَّة، ولاسيماالأدبوالنَّقد، في سياق يسعى إلى الجمع بين الصَّرامةالمعرفيَّة والانفتاح المنهجيِّ من ناحية، وبين حفظ التُّراث وإحيائه بعيون معاصرة من ناحية أخرى؟

تفتح هذه الإشكالية الباب أمام معالجة ثلاث قضايا متداخلة، وهي:

أ– مدى عمق اطلاع **كيليطو** على النَّقد العربيِّ القديم وحدود حضوره في كتاباته ومقارباته؛

ب– تأثير الأدوات الغربيَّة التي يوظفها (السَّرديَّات الحديثة/Modern Narratology[1]، التَّحليل الثَّقافي، المقاربات المقارنة) في تكوين رؤيته للتُّراث؛

ج– انعكاس مشروعه على الدَّرس الجامعيِّ المغربيِّ، وإمكانية اعتباره مسارًا لتطوير مناهج تدريس الأدب العربيِّ وتحليل الخطاب.

وبهذا المعنى، فإنَّ دراسة مشروع **كيليطو** هنا ليست غايةً في ذاتها، وإنَّما هي نافذة لفهم وضعية البحث الأدبيِّ بالمغرب وآفاقه، وحدود انخراطه في حوار عالميٍّ حول العلوم الإنسانيَّة ووظائفها.

2 – فرضيَّات البحث

تبنى هذه الدراسة على جملة من الفرضيَّات التي تنبع من طبيعة المشروع النَّقديِّ لـ **عبد الفتاح كيليطو**، ومن موقعه داخل التحوُّلات الرَّاهنة للبحث العلميِّ المغربيِّ في العلوم الإنسانيَّة، وخاصَّة مجال النَّقد الأدبيِّ والدِّراسات التُّراثيَّة:

أ – فرضية التَّوازن المراوغ بين التُّراث والمناهج الحديثة

نفترض أن قراءة **كيليطو** للأدب العربيِّ القديم تتأرجح بين معرفة رصينة بالنُّصوص واستعانة واسعة بالمناهج الغربيَّة؛ وأنَّ هذا التوازن، على فرادته، يظلّ غير ثابت، إذ يتحوّل من كتاب إلى آخر، بما يتيح إمكاناتٍ جديدةً للدرس النقديّ، ويفتح في الآن نفسه أسئلةً حول حدود هذا التداخل.

---

1 – السَّرديَّات الحديثة هي حقلٌ نقديٌّ–تحليليٌّ نشأ في سياق البنيويَّة وما بعدها، ويُعنى بدراسة آليات الحكي وبنية السَّرد الدَّاخليَّة من حيث تنظيم الزَّمن، وتوزيع الأصوات، ووظائف الرَّاوي، ومستويات الخطاب السَّرديِّ، انطلاقًا من النَّصِّ ذاته بوصفه نظامًا دلاليًّا مستقلًا، لا بوصفه انعكاسًا مباشرًا للمؤلِّف أو للسِّياق الخارجيِّ. أسهم هذا الحقل في نقل الاهتمام النَّقديِّ من مضمون الحكاية إلى كيفيَّة اشتغالها النَّصِّيِّ، ومن السُّؤال عمَّا يُروى إلى السُّؤال عن كيف يُروى. يُنظر:

Genette,Figures III, 1972, pp. 67-75; Barthes,"Introduction à l'analyse structurale des récits",1966, pp. 5-7; Rimmon-Kenan,Narrative Fiction,2002, pp. 2-4.

ب– فرضية تجاوز الخطاب الأكاديميّ التّقليديّ

يفترض البحث أنَّ**كيليطو** لا ينتمي إلى المدرسة الجامعيَّة الصَّارمة، بل يمارس نوعًا من القراءةالأدبيَّة للنَّقد، ما يجعله يقدِّم نقدًا يُكتَبُ أَدَبًا، وهو ما قد يمثِّل إضافة للبحث الأدبيِّ، لكنَّه يطرح تساؤلات حول إمكانية اعتماده نموذجًا للدَّرس الجامعيِّ أو تحويله إلى مرجع منهجيٍّ.

ج– فرضية ارتباط مشروع كيليطو بالبحث العلميّ المغربيّ في مرحلة التّحوُّل

نفترض أن استقبال مشروع **كيليطو** في الجامعة المغربيَّة يُضيء التَّحوُّلات الكبرى التي تعرفها العلوم الإنسانيَّة، لا سيما بعد بروز مفاهيم جديدة مثل: الاقتصاد الثَّقافيِّ والمعرفة البينيَّة، مما يسمح بفحص مشروعه بوصفه مدخلا لفهم التَّحوُّلات وليس مجرد تجربة فرديَّة.

د– فرضية إعادة طرح سؤال القراءة

نفترض أنَّ قيمة مشروع **كيليطو** ليست في ما قاله عن التُّراث فقط، بل في السُّؤال الذي أعاد طرحه: هل يمكن قراءة التُّراث قراءة إنسانيَّة معاصرة تبتعد عن التَّسليم والوثوقيَّة، دون أن تقع في التَّغريب؟وهذه الفرضية هي أساس ربط مشروعه بموضوع العدد حول وظائف العلوم الإنسانية وآفاقها.

3 - المنهج

يتبنَّى هذا البحثُ،اعتمادًا على طبيعة الموضوع وإشكاليَّته وأسئلته وفرضيَّاته،منهجًا مركَّبًا يتقاطع فيه الوصفيُّ التَّحليليُّ والمقارن:

المنهج الوصفيُّ–التَّحليليُّ: يُستخدم لقراءة نصوص **كيليطو** وتحليلها، ورصد الأسس النَّظريَّة، التي يقوم عليها مشروعه، وفهم الأدوات البلاغيَّة والسَّرديَّة التي يوظِّفها في التَّعامل مع النُّصوص التُّراثية.

المنهج المقارن: ويتمظهر في مقارنة مقاربات **كيليطو** للنَّقد العربيِّ القديم بمقاربات نقَّاد عرب ومغاربة آخرين،ومقارنة قراءته مع بعض المناهج الغربيَّة الَّتي يحاورها ويستلهمها بهدف الكشف عن خصوصيَّة مشروعه وحدود تأثيره.

4 - أهداف الدراسة:

تروم هذه الدراسة تحقيق الأهداف الآتية:

– إعادة تقييم المشروع النَّقدي لـ **عبدالفتَّاح كيليطو** تقييمًا علميًّا رصينًا بتجاوز القراءات التَّمجيديَّة أو الاتِّهاميَّة، واعتماد مقاربة متوازنة تربط مشروعه بالنَّقد القديم، وتضعه في سياقه العلميِّ والإنسانيِّ.

–إبراز موقع مشروع **كيليطو** داخل البحث العلمي المغربي، وإظهار كيف أسهم في تشكيل طرق جديدة لقراءة التُّراث العربيِّ القديم، وكيف تلقَّاه الباحثون والطَّلبة والمدرِّسون.

–الكشف عن حدود قراءة **كيليطو** للتُّراث بتحليل مكامن القوَّة ومكامن النَّقص.

–تقديم رؤية جديدة لدور العلوم الإنسانيَّة في قراءة التُّراث بجعل مشروع **كيليطو** مثالًا تطبيقيًّا لطبيعة التَّوتُّر بين المناهج الحديثة وموروث النَّقد القديم.

–الإسهام في تطوير مقاربات تدريس الأدب والتُّراث الأدبي في المغرب باقتراح نتائج بحثيَّة تساعد على تجديد طرق قراءة النُّصوص القديمة، وتطوير مناهج تعليم الأدب، والانفتاح على العلوم الإنسانيَّة والقراءات المقارنة.

وهكذا، فإنَّ الوقوف عند مشروع **كيليطو** لا ينطلق من رغبة في استعادة صورة ناقد ذائع الصِّيت، ولا من أُمنية في إلحاقه بسلسلة الأعلام الَّذين سجَّلوا حضورًا بارزًا في السَّاحة الثَّقافيَّة المغربيَّة، بل من حاجة علميَّة ملحَّة يفرضها واقع البحث الأدبيِّ المغربيِّ في لحظته الرَّاهنة. ذلك أنَّ هذا المشروع بفرادته الأسلوبيَّة وتحوُّلاته المنهجيَّة يقدِّم مرآةً تعكس ما يعانيه الدَّرس الأدبيُّ في الجامعة المغربيَّة، من منازعة بين التَّقليد والتَّجديد، وبين صرامة التَّخصُّص وفتنة الكتابة، وبين الوفاء للتُّراث والانفتاح على العلوم الإنسانيَّة في صيغتها الكونيَّة. وليس من سبيل إلى فهم هذا المشروع دون مقاربته في ضوء هذا الواقع الأكاديميِّ، الذي يتغيَّر على مهل، ويعيد صياغة أسئلته مع كل جيل جديد من الباحثين.

5 - كيليطو والسِّيَّاق الجامعيُّ المغربيُّ

لم تعد الجامعة المغربيَّة منذ أواخر القرن العشرين، مجرَّد فضاء لتلقين المعارف الأدبيَّة على وفق مناهج كلاسيكيَّة رسَّختها الحقبة البنيويَّة، بل غدت مختبرًا تتفاعل داخله تصوُّرات متعدِّدة للتُّراث العربيِّ، تتجاور أحيانًا وتتصادم أحيانًا أخرى[2]. فمع اتِّساع دائرة البحث في السَّرديَّات واللِّسانيات وتحليل الخطاب، ومع تدفُّق المناهج الأنثروبولوجيَّة والفلسفيَّة من حقول المعرفة الغربيَّة، وجد الدَّرس الأدبيُّ نفسه أمام ضرورة إعادة تعريف موضوعه الأصلي: ما التُّراث؟ وكيف نقرأه؟[3].

2 - El-Tayeb, 2008, pp. 34-35.

بنجلون، 2015، ص: 112.

3 - Kilito, 1995, p. 21.

وفي خضمِّ هذا المخاض، ظهر **عبد الفتاح كيليطو** بوصفه أحد أبرز الوجوه التي قدَّمت للجامعة نموذجًا مختلفًا للقراءة، يتَّخذ من التُّراث حقلًا للتَّجريب الفكريِّ واللُّغويِّ، لا موضوعًا للتَّحقيب المدرسيِّ الصَّارم[4]. فقد جاء الرَّجل في لحظة كان فيها الدَّرس الجامعيُّ يبحث عن لغة جديدة للمساءلة؛ لغة لا تكتفي بتطبيق المناهج التطبيقيَّة كما استُوردت، ولا تغرق في البلاغة التَّقليديَّة كما شُرحت، بل تستعيد نصوص التُّراث لتضعها في قلب أسئلة معاصرة تتعلَّق بالتَّأويل، وتبادل اللُّغات، وصناعة المفاهيم[5].

لقد وجد الباحثون المغاربة في كتاباته نافذة تُطلُّ على تراث عربيٍّ يتحرَّك ويتنفَّس، لا يقبل بالقراءات، الَّتي تُغلِّفه بأستار التَّبجيل ولا بتلك التي تفككه تفكيكا سطحيًّا[6]. لذلك هناك مَن ذهب إلى القول بأنَّ المشاريع الأكاديميَّة التي انطلقت في تتبُّع السَّرد العربيِّ القديم، والرَّسائل الجامعيَّة التي تناولتْ مفهوم الحكاية والمقامات والبيان، جلَّها كانت تستفيد بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من انزياحات **كيليطو** المنهجيَّة، ومن تفكيكه للاطمئنان النَّقديِّ،الَّذي ظلّ يخيِّم على الحقول الأدبية لعقود[7].

وبذلك يمكن القول إنَّ مشروع **كيليطو** لا يُفهم إلا داخل هذا التحوُّل، الَّذي بدأت فيه الجامعة المغربيَّة تقرأ التُّراث لا بوصفه ذاكرة جمعيَّة فقط، بل بوصفه إمكانًا معرفيًّا يتجدَّد بتجدُّد الأسئلة، ومساحةً للتفاوض بين الحداثة والتَّقليد، وبين الفكر العربيِّ ومناهج الفكر العالميِّ[8].

6 – التُّراث النَّقديُّ العربيُّ القديم وإمكانات قراءته المعاصرة

6-1: تعريف التُّراث النَّقديِّ القديم: حدوده المعرفيَّة وامتداداته

ليس التُّراثُ النَّقديُّ العربيُّ القديم مجرَّد مجموعة نصوص متناثرة في مدوَّنات البلاغة والشِّعر والأدب، بل هو – بحسب **عبد القاهر الجرجاني** (ت 471 هـ/ 1078م) –علمٌ يتولَّدمن حركة المعاني وتناسب الألفاظ[9]. وتشهدكتب البلاغيِّين والأدباءعلى أنَّ النَّقدَ العربيَّ لم يكن مجرَّد تعليقات لغويَّة، بل رؤية كَوْنيَّة للعلاقة بين القول والقائل والمتلقِّي، وهي الرُّؤية الَّتي وجد فيها باحثون مغاربة معاصرون أساسًا لإعادة بناء مفاهيم نظريَّة الأدب[10].

4 - Kilito, 2000, pp. 47-48.
5 - Boudjedra, 2011, p. 76.
6 - Kilito,Les Séances, 1983, pp. 14-16.
7 - Bouamrane, 2014, p. 89.
8 - Kilito, 2007, p. 92.

9 – الجرجاني (ت 471 هـ/ 1078م)، ص: 47.
10 – بنجلون، 2015، مرجع سابق، ص: 112.

وتشمل بنية التُّراث النَّقدي العربي ثلاثة أنواع رئيسة من النصوص، ألا وهي:

أ. **النُّصوص البلاغيَّة**: مثل: البيان والتَّبيين، ودلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، والمقامات، وكلُّها تعالج طبيعة الدَّلالة، والتَّمثيل، والأساليب، وهي نصوص توازي في عُمقها ما يعتبره باحثون غربيون أصول التَّداوليَّة والسِّيميائيَّات العربيَّة القديمة[11].

ب. **النُّصوص الشِّعريَّة والنَّقد الشِّعريُّ**: بدءًا من **ابن طباطبا** (ت 322هـ/ 934م) **وقدامة بن جعفر** (ت 337هـ/ 948م) إلى **ابنرشيق** (ت 463هـ/ 1071م)، حيث تشكَّلت مبادئ الذَّوق المعلَّل والاحتكام إلى جودة المعنى ورصانة الأسلوب، وهي المبادئ التي ستتطوَّر – في ما بعد – في نظرية الخطاب الأدبي[12].

ج. **النُّصوص السَّرديَّة**: من مثل: الرَّسائل، والمقامات، وكتب الأخبار، والسِّيَر، وهي مدوَّنة (Corpus) واسعة تتناول قضايا السَّرد والحكاية وتمثيل الواقع. أعاد **كيليطو** – في ما بعد – اكتشاف هذه النُّصوص بوصفها نواةً للسَّرد العربيِّ القديم في دراسته حول الفنِّ القَصَصيِّ[13].

إنَّ تعريف التُّراث بهذه الصِّيغة الموسَّعة ليس إجراءً اصطلاحيًّا فقط، بل خطوة منهجيَّة ضروريَّة قبل إعادة قراءته في السِّياق المغربيِّ المعاصر.

2-6: المدارس النَّقديَّة التَّقليديَّة

يُظهر التُّراث العربيُّ أنَّ النَّقد لم يكن واحدًا، بل كان مجموعة من المقاربات المتجاورة والمتفاعلة، وتفيد الدِّراسات المقارنة في الغرب أنَّ هذا التَّنوُّعَ يوازي تعدُّد المناهج في النَّقد الحديث[14].

أ. **المدرسة البيانيَّة**: يمثِّلها **الجاحظ** (ت 255هـ/ 869م) **والسَّكَّاكي** (ت 626هـ/ 1229م)، وتدرس أثَر الخطاب ومقام التَّخاطب وسياق المتلقِّي،وتُعدُّ من أهمِّ المدارس التي مهَّدت لتحليل الخطاب العربي[15].

ب. **المدرسة الذَّوقيَّة – الأدبيَّة**: يُمثِّلها **ابن طباطبا** (ت 322هـ/ 934م)، **وقدامة** (ت 337هـ/ 948م)، **وابن رشيق** (ت 463هـ/ 1071م)،وتقوم على الذَّوْق المؤسَّس على الحجة، والتوازن بين جماليَّات اللُّغة وتعليل الحكم النَّقديِّ،وعدَّها **بوعمران** اللَّبنة الأولى لنقدٍ عربيٍّ مؤسَّس على التَّذوُّق العِلميِّ[16].

---

11 - Müller, 2005, p. 56.
12 - El-Tayeb, 2008, op. cit., p. 29.
13 - Kilito, 1995, op. cit., p. 14.
14 - Martín, 2012 p. 74.
15 - Kilito, 2000, op. cit., p. 33.
16 - Bouamrane, 2014, op. cit., p. 91.

ج. المدرسة البلاغيَّة العقليَّة: يمثِّلها **عبد القاهر الجرجاني** (ت 471 هـ/ 1078م)،وهي المدرسة التي تقوم على بنية النَّظم وعلاقات التَّركيب وطبقاته الدَّلاليَّة، وقد أعاد باحثون مغاربة معاصرون اكتشاف هذه المدرسة بوصفها نواة لسيميائيَّات عربيَّة أصيلة[17].

د. بدايات الدَّرس السِّيميائيِّ العربيِّ: يرى **موليِر** (Müller) أنَّ دراسة العرب للمجاز والقرائن والمقاصد تمثِّل أوَّل تنظيم فكريٍّ لفكرة العلامة في الثَّقافة العربيَّة[18]، وهي الأصول القديمة لما سيُعرف–في ما بعد – بالسِّيميائيَّات الحديثة.

3-6: الإشكالات المعاصرة في قراءة التُّراث

تواجه قراءة التُّراث اليوم إشكالات منهجيَّة أهمها:

أ. الصَّرامة اللُّغويَّة مقابل التَّأويل: تتَّسم المدارس القديمة– أحيانًا– بصرامة لغويَّة تجعل النَّصَّ مرجعًا مغلقًا.أمَّا الدِّراسات المعاصرة فتتَّجه إلى تأويل النَّص بما يتيح تفعيل طاقته الدَّلاليَّة[19]، الأمر الذي يخلق توترًا بين سلطة النَّصِّ وحرِّية القارئ.

ب. المناهج الغربيَّة مقابل الحسِّ النَّقديِّ العربيِّ: ترى الدِّراسات المقارنة أنَّ الخلل لا يكمن في تبنِّي المناهج الغربيَّة، بل في تطبيقها دون وعي بسياقها أو تاريخها[20]، وقد واجه الباحثون المغاربة هذا الإشكال بتطوير قراءة مزدوجة تجمع بين الآلة المنهجيَّة الحديثة وعمق التُّراث.

ج. صعوبة إدماج التُّراث القديم داخل البحث الجامعيِّ المعاصر: يوصفالوضع المغربي بأنَّه تجربة فريدة تسعى إلى جعل التُّراث عنصرًا منتجًا للمعرفة لا مجرد ذاكرة محفوظة[21]. وفي هذا السِّياق بالذات تبرز أهمِّيَّة مشروع **كيليطو** بوصفه نموذجًا ملموسًا لقراءة قادرة على أن تمنح النُّصوص القديمة حياةً جديدةً عبر طرح أسئلة حديثة دون أن تسلب النُّصوص أصالتها.

وعليه، فالتُّراث النَّقديَّ العربيَّ القديم، في اعتقادنا، ليس مادَّة جامدة، بل هو مادَّة معرفيَّة متجدِّدة، يُعاد اكتشافها كلَّما تغيَّرت أدوات القراءة، وأنَّ الإشكالات المنهجيَّة الرَّاهنة ليست سوى ترجمة لسؤال أكبر مُفادُهُ: كيف يمكن للجامعة المغربيَّة أن تجعل من التُّراث مادَّةً للبحث العلميِّ لا مجرَّد مرجعٍ ثقافيٍّ؟

17 – بنجلون، 2015، مرجع سابق، ص: 143.

18 - Müller, 2005, op. cit., p. 62.

19 - Hernández, 2009, p. 118.

20 - El-Tayeb, 2008, op. cit., p. 44.

21 - López, 2013, p. 52.

7 – عبد الفتَّاح كيليطو ومشروع إعادة قراءة التُّراث

7-1: نَبذة عن مشروعه النَّقديِّ

يَعجُّ الفكر النَّقديُّ العربيُّ المعاصر بأسماء قادرة على إعادة اكتشاف النُّصوص التُّراثيَّة على وفق رؤية حديثة، ولعلَّ **كيليطو** من أبرز هؤلاء الَّذين بنوا مشروعًا نقديًّا طويل الأمد امتد لأكثر من ربع قرن، مجسَّدًا في دراساته للبلاغة العربيَّة، والمقامات، والنُّصوص السَّرديَّة، والأدب الغرائبيِّ[22].

يتمثَّل المشروع النَّقدي ل**كيليطو** في سعيه لإعادة التُّراث العربيِّ إلى صيرورة القراءة المعاصرة، لا مرجعًا جامدًا يُستشهَدُ به، بل بوصفه مساحة خصبة لتوليد الأسئلة النَّقديَّة الجديدة. ومن خلال هذا المشروع، لم يكتف **كيليطو** بالملاحظة النَّظريَّة، بل صاغ أدوات منهجيَّة فعَّالة قادرة على تحليل النُّصوص في أبعادها البلاغيَّة والسَّرديَّة والجماليَّة، وهو ما يجعل قراءته حَلْقة وَصْل بين التُّراث ووعي النَّقْد المعاصر[23].

7-2: قراءة كيليطو للنَّقد القديم

أ. البلاغة

انطلق **كيليطو** من فهمه العميق للبلاغة العربيَّة باعتبارها علْمًا قائمًا على حركة المعاني وتناسب الألفاظ[24]، لكنَّه لم ينظر إليها على أنها مجرَّد قواعد جَامدة ، بل آلية حركيَّة لتفسير النُّصوص وإعادة إنتاج جماليَّاتها. في هذا السِّيَّاق استعرض **كيليطو** نصوصًا بيانيَّة وأسلوبيَّة من **الجاحظ وابن رشيق**، معيدًا اكتشاف روابطها بين المعنى واللَّفظ، وتجاوزها للقراءات التَّقليديَّة الجامدة[25].

ب. المقامات

تميَّز **كيليطو** بفهمه العميق لظاهرة المقامات بوصفها أدبًا فنِّيًّا وسرديًّا، مفسِّرًا أنَّ هذا الفنَّ لم يكن مجرَّد استعراض للمهارات اللَّفظيَّة، بل مستودعًا للتَّجارب الإنسانيَّة، ومرآة لوعي القرَّاء المعاصرين، قادرًا على استخدام النُّصوص لطرح أسئلة عن الهُوية والوعي الثَّقافي[26].

ج. النُّصوص السَّرديَّة

تناول **كيليطو** في دراساته للسَّرد القديم، الرِّوايات القصصيَّة التَّقليديَّة باعتبارها نصوصًا متعدِّدة الأبعاد، يجمع فيها بين الخطاب والتَّاريخ والوعي الاجتماعيِّ. وقد

22 - Kilito,L'Auteur et ses doubles, 1985, p. 14.
23 - El-Tayeb, 2008, op. cit., p. 33.
24 – الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 50–51.
25 - Kilito, 1995, op. cit., p. 21.
26 - Bencheikh, 1992, p. 47.

أظهر أنَّ القراءة النَّقديَّة لهذه النُّصوص تتطلَّب منهجًا تأويليًّا يمكِّن من الكشف عن طبقات المعنى المتعدِّدة، دون إغفال أسلوبها البلاغيِّ والجماليِّ[27].

د. الأدب الغرائبي

منح **كيليطو** اهتمامًا خاصًّا للأدب الغرائبيِّ، سواء في القصص المجهولة أو النُّصوص الرَّمزيَّة، حيث وجد في الغرابة فضاءً مفتوحًا للتَّحليل المقارن والتَّأويل الإبداعيِّ. هذه القراءة أظهرت أنَّ التُّراث العربيَّ ليس نصوصًا مغلقة، بل مخبرًا لابتكار القراءات الحديثة[28].

3-7: المنهج المركب

تميَّز مشروع **كيليطو** بمنهج متعدِّد الأدوات، يقوم على أربعة أركان رئيسة:

السُّؤال النَّقدي:يفتح أبواب النَّص على الأسئلة الجوهريَّة حول المعنى والدَّور الاجتماعيِّ والتَّجربة الإنسانيَّة.

التَّأويل: يتجاوز القراءة الحرفيَّة للنُّصوص ليكشف عن طبقاتها الخفيَّة ودلالاتها المتعدِّدة[29].

المقارنة: يعتمد **كيليطو** المقارنة بين التُّراث العربيِّ والمناهج الغربيَّة، لتوضيح خصوصيَّة النَّصِّ العربيِّ وعمق بنيته الدَّلاليَّة[30].

تحليل الخطاب والجماليَّة الأدبيَّة: يدرس العلاقة بين اللُّغة والمعنى، ويكشف عن حركيَّة النَّصِّ ومقدار فعاليَّته الجماليَّة.

إن الجمع بين هذه الأدوات ليس تطبيقًا صارمًا لقوالب غربيَّة، بل إنشاء أدوات تفكير حرَّة تسمح بالتَّحليل النَّقديِّ المعاصر مع الحفاظ على خصوصيَّة التُّراث العربيِّ

لعل أحد أهم إنجازات **كيليطو** أنَّه لا يعتمد المعرفة الغربيَّة بوصفها قالبًا جاهزًا، وإنما يستخدمها أداة للتَّفكير، وبمعنى آخرفهو يجمع بين التَّمكن المعرفيِّ من التُّراث مثل:البلاغة والمقامات والسَّرد والأدب الغرائبي، والمناهج الغربيَّة الحديثة ممثلة في البنيويَّة والسِّيميائيَّات والتَّحليل النَّصي والجماليَّة.هذا التوازن مكَّنه من إحياء التُّراث بطريقة معاصرة، متجاوزًا النَّقد التَّقليديِّ الجامد، ومتيحًا للجامعة المغربيَّة إعادة إدماج التُّراث في البحث العلميِّ الحديث[31].

27 - Allen, 1998, p. 57.
28 - Müller, 1994, p. 62.
29 - Hernández, 2009, op. cit., p. 118.
30 - El-Tayeb, 2008,op. cit., p. 44.
31 - López, 2013, op. cit., p. 52.

1-3-7 – تأثير المناهج الغربيَّة في مشروع كيليطو

تزامن نَهْجُ **كيليطو** في قراءة التُّراث مع لحظة تاريخيَّة عجَّت بتوجُّهات منهجيَّة زمن ولوج البنيويَّة، وصعود دراسات السَّرد، وتكثيفُ مناهجِ المقارنة والتَّحليل النَّصِّيِّ في الحقل النَّقديِّ العالميِّ. إنَّ السُّؤال المُثار هنا ليس:هل تأثَّر **كيليطو** بالمناهج الغربيَّة، وإنما: كيف جرى هذاالتَّأثُّرعمليًّا؟؛وهل ولج إلى كتاباته بطريقة تذيبُ الخصوصيَّة العربيَّة أم بطريقة جعلت من الأدوات الغربيَّة خدمةً لإعادة اكتشافِ النُّصوص العربيَّة؟. ولعل هذا ما سيجيب عنه المحورالتالي.

يُظهر المشروع النَّقدي لـ**كيليطو** أنَّ المثاقفة مع المناهج الغربيَّة لم تكن عنده فعل استيراد أو توليف مُسطَّح، بل كانت ضربًا من المراجعة المستمرَّة لأدوات القراءة، على حدِّ تعبيره في "أتكلَّم جميع اللغات لكن بالعربية"، حين يشير إلى أنَّ مهمَّة النَّاقد هي إضاءة ما كان ساكنًا في النَّص القديم بنورٍ جديد[32]. لم تحضر المناهج البنيويَّة والسَّرديَّة في كتاباته حضور القالب الجاهز، بل حضورِ السُّؤال المفتوح، الذي يعيد بناء العلاقة بين القارئ والنَّصِّ، ويضمن للنَّظر النَّقديِّ قدرةً على الكشف لا على الإغلاق.

وقد كانت البنيويَّة في طورها الوصفيِّ محطَّة رئيسة في تكوينه؛ فهي التي لفتت نظره إلى كيفية اشتغال النَّص قبل الحديث عن موضوعه أو سياقه. يظهر ذلك بجلاء في كتابه "Les Séances"، حيث يعيد تحديد موقع المقامات في خريطة سرديَّة معقَّدة، إذ يفكك أدوار الرَّاوي والمتكلِّم والمخاطَب، محاولًا الكشف عن تداخلِ الأصوات وتوتُّر المسافة بين السَّارد والمتلقِّي[33].في هذا كلِّه، يبتعد **كيليطو** عن قراءة المقامات بوصفها ظاهرة بلاغيَّة أو أدبيَّة مُفْرَدة/ معزولة، ويقرِّبها من إشكالات السَّرد المعاصر القائمة على مفاهيم مثل تعدُّد الأصوات، والرَّاوي غير الموثوق، والالتباس السَّردي.

أمَّا السَّرديَّات الحديثة[34] (Modern Narratology) فقد منحته جهازًا مفهوميًّا يسمح له بالتمييز بين مستويات الحكاية، وتقدير أثر الزَّمن والتَّبئير والضَّمائر في تشكيل أفق التَّلقِّي. قد عبَّر بوضوح عن هذا الوعي بأنَّ النَّص لا يُستنفد بقراءة واحدة، بل يكشف عن طبقاته كلَّما أعيد النَّظر فيه[35]. هذه الفكرة، الَّتي تستعيد صدى نظريَّة طبقات النَّص عند **رولان بارث**، تتجاور في كتاباته مع أثر واضح لما يسمِّيه بارث "متعة النَّص" (Le plaisir du texte 1973)، إذ يحضر في قراءات **كيليطو** ميلٌ جوهريٌّ لاكتشاف ما يسمِّيه اللَّحظة المربكة، الَّتي يفاجئ فيها النصُّ قارئهُ، ويحرِّضه على إعادة بناء المعنى.

---

32 - Kilito, Je parle toutes les langues mais en arabe, 2013, p. 17.

33 - Kilito, 1983,op. cit., pp. 42–45.

34 – سبق التَّعريف بهذا المصطلح في المقدِّمة في الهامش (رقم 1).

35 - Kilito, La littérature et les Arabes, 1992, p. 9.

يبدو أثر المقاربة المقارنة على نَحْوٍ أشدَّ جَلاء في أعمال **كيليطو** التَّالية، حيث تصبح القراءة ضربًا من انتقالٍ بين ثقافتينِ لا يُراد منهما المفاضلة، بل كشف النُّقَط العمياء في تراثنا؛ وهو التَّعبير نفسه الذي يستعمله في مقاله: (Lire le récit arabe)، حيث يعتبر أنَّ النَّقد المقارِن اكتشافٌ للزَّوايا التي لا تراها ثقافتُنا لأنَّها اعتادت النَّظر من موقع واحد[36].في هذا الإطار، لم تكن المقارنة عنده وسيلة لإثبات حضور العربيِّ في مرايا الآخر الأوروبيِّ، بل كانت وسيلة عميقة لإعادة الاتِّصال بالنَّصِّ القديم من موقع غير مألوف، موقع يسمح برؤية الانزياحات والمفارقات التي قد تُطمَس في القراءة التَّقليديَّة.

لقد شكَّلت البنيويَّة، في مشروع **كيليطو**، أداةً للكشف عن البُنى العميقة للنصوص لا بوصفها أنساقا مغلقة، بل بوصفها شبكات من العلاقات الدَّلاليَّة القابلة لإعادة التَّفكيك. أمَّا السَّرديَّات الحديثة، فقد وفَّرت له جهازًا مفهوميًّا لتشريح آليات الحكي، من توزيع الأصوات إلى تنظيم الزَّمن ومستويات السَّرد، بما أتاح إعادة مساءلة النُّصوص السَّرديَّة العربيَّة القديمة من الدَّاخل، لا من هامشها التَّاريخيِّ. في هذا السِّياق، أسهمت المقاربة المقارنة في فتح أفق قراءة يرى النَّصَّ العربيَّ في ضوء غُربته الدَّاخلية، حين يُقارَبُ بنصوص أخرى لا على سبيل المفاضلة، بل بقَصْد إبراز ما يختصُّ به من صِيَغٍ وتمثيلات سرديَّةٍ مغايرة[37].

كما أمدَّ التَّحليلُ النَّصِّيُّ الحديث، بما ينطوي عليه من عناية بالتَّناص والبنية الصَّوتيَّة والإيقاعيَّة والعلامات الثَّقافيَّة الكامنة في الخطاب، قراءةَ **كيليطو** بوسائل تحليل أكثر تماسُكًا، مكَّنته من المزاوجة بين وصف الدَّلالة وتتبُّع أثرها الجمالي داخل النَّصِّ. وقد نبَّه عددٌ من الدَّارسين إلى أنَّ توظيفه لهذه الأدوات لا يندرج ضمن إعادة إنتاج لمقولات النَّقد الغربيِّ، بل يقوم على تحويلٍ تأويليٍّ بطيء للمفاهيم، يجعلها صالحة لقراءة نصوص عربيَّة لا تنتمي إلى مدوَّنة (corpus) السَّرد الأوروبِّيِّ، ولا تستجيب تلقائيًّا لقوانينه الجاهزة[38]، مع كل التَّحفُّظ على جلِّ الاستنتاجات والخلاصات التي توصَّل إليها **كيليطو** في قراءاته للتُّراث الأدبيِّ القديم، ذلك أنَّ هذا البحث يروم وصف آليات عمله، لا الحكم على النَّتائج وتقييمها، إذ ما يهمُّ هو التَّجديد في أدوات المنهج النَّقديِّ وآلياته.

وهكذا، فإنَّ ما يظهر للوهلة الأولى باعتباره تأثيرًا غربيًّا مباشرا، يتبيّن في النِّهاية أنَّه تحوُّلٌ في آليات قراءة التُّراث لا في مرجعيَّته؛ إذ ينطلق **كيليطو** من التُّراث ليعود إليه مزوَّدًا بأدوات قراءة جديدة، لا بنموذجٍ بديلٍ يحلُّ محلَّه. وهذا الفارق الدَّقيق هو الذي

36 - Kilito, “Lire le récit arabe”, 1996, p. 221.
37 - Genette,1972, op. cit., pp. 72- 75; Kilito,1996, op. cit., pp. 219-222.
38 - Boullata, 2009, pp.55-58.

منحه القدرة على تجاوز الثُّنائيَّات الاختزاليَّة التي شاعت في النَّقد العربيِّ المعاصر: ثنائية القديم والحديث، والتُّراث والمناهج المعاصرة، والهُوية والآخر.

7-3-2 – من التبعية النقدية إلى الاستقلال المنهجي

يُعدُّ موقف **كيليطو** من المناهج النَّقديَّة الغربيَّة من أكثر المواقف دقَّة وإشكالًا في النَّقد العربيِّ المعاصر؛ إذ يقوم على مبدأ انتقائيٍّ واعٍ لا يذوب في النَّسق المنهجيِّ ولا يعاديه. فالمناهج في تصوُّره ليست منظومات مُغلقةً تُفرَض على النَّصِّ، بل آلات نظر تُستعمل لتتيح للنَّصِّ أن يقول ما فيه، ثُمَّ تُترَكُ جانبًا حين تُستَنْفَدُ قُدرَتُها على الكشف. عبَّر عن هذا الموقف بوضوح حين أكَّد أنَّ وظيفة النَّقد ليست إصدار الأحكام، بل إعادة طرح الأسئلة التي أخفتها القراءات المطمئنَّة/ المتصالحة[39].

إنَّ هذا الوعي بطبيعة المنهج، يضع **كيليطو** خارج منطق التَّبعيَّة المنهجيَّة الذي وصم جانبًا من النَّقد العربيِّ في النِّصف الثَّاني من القرن العشرين، حين تحوَّلت البنيويَّة والسِّيميائيَّات إلى "لغة سلطة" أكثر منها أدوات قراءة؛لأنَّ **كيليطو** استثمر مفاهيم الزَّمن السَّرديِّ، وتعدُّد الأصوات، والسَّرد داخل السَّرد، لا بوصفها مفاتيح تفسير شاملة، وإنما باعتبارها أدوات إجرائيَّة تُختبَر داخل النَّصِّ العربيِّ نفسه، وتُعدَّل بحسب مقاومة النَّصِّ أو تجاوبه. إنَّنا لا نعثر في كتاباته على تطبيق آليٍّ للمقولات البنيويَّة، بل على ما يمكن تسميته "ترجمة مفهوميَّة" تُراعي الفوارق التَّاريخيَّة واللُّغويَّة والجماليَّة بين مدوَّنة التُّراث العربيِّ والنُّصوص التي وُلدت فيها تلك المناهج.

يتجلَّى هذا المنحى بوضوح في تعامله مع فنِّ المقامات؛ إذ لا يقرأها بوصفها تمرينًا بلاغيًّا أو عرضًا لفصاحة لغويَّة، بل بوصفها جهازًا سرديًّا معقَّدًا يثير أسئلة الهُوية والتَّمثيل والتَّخييل اللُّغويِّ.لقد عَمَد إلى تفكيك العلاقة بين السَّارد والمتكلِّم والمتلقِّيِّ، كاشفًا عن لعبة الأقنعة التي يقوم عليها الخطاب المقاميُّ، دون أن يفصل ذلك عن شروط البلاغة العربيَّة القديمة[40]. لذلك فإنَّ البنيويَّة تحوَّلت من نموذج وافدإلى أداة كاشفة تُسهم في إبراز ما كان كامنًا في النَّصِّ، لا في إعادة تشكيله على صورة خارجيَّة، على الرُّغم من الغرابة التي قد يجدها المتلقِّيُّ العربيُّ في لغة الرَّجل والإغراب في أسلوب التَّحليل.

ومن ثَمَّ، فإنَّ الاتِّهام الشَّائع أنَّ **كيليطو** ناقدٌ فرنكوفونيٌّ يكتب للغرب، يتهاوى عند التمعُّن في مرجعيَّاته النَّصِّيَّة؛ إذ تكاد كتاباته لا تخلو من إحالات دقيقة إلى **الجاحظ** (ت 255هـ/ 869م) **وابن قتيبة** (ت 276هـ/ 889م) **والهمذاني** (ت 398هـ/ 1008م) **والجرجاني** (ت 471 هـ/ 1078م). بيد أنَّ عودتَه إلى هؤلاء ليست عودة تَكرار أو إحياء

39 - Kilito, 2013, op. cit, p.17.
40 - Kilito, 1983,op. cit., pp. 42–45.

خطابيٍّ، بل عودة استفسار ومحاولة فهم ومساءلة. لم يكن يستدعي التُّراث ليؤكِّد صلاحيَّته المطلقة، ولا ليستبدله بمنهج حديث، بل ليضعه في موضع اختبار نقديٍّ جديد، يُظهر طاقته التَّأويليَّة وقدرته على مخاطبة القارئ المعاصر.

لم تكن البنيويَّة عند **كيليطو** ذاته سوى وسيلة لترتيب الأسئلة، لا لإقصاء التُّراث أو الحكم عليه. هذا الأمر يكشف عن وعي نقديٍّ مؤطَّر بحدود المنهج، ويؤكِّد أنَّ العلاقة بينه وبين المناهج الغربيَّة علاقة توظيفٍ لا امتثال. هنا تطفو على السَّطح ما يمكن تسميته بـ "القراءة المتشككة" عند **كيليطو**؛ قراءة لا تستقرُّ على نتائج نهائيَّة، ولا تطمئنُّ إلى خلاصات مغلقة، بل تُبقي النَّصَّ مفتوحًا على احتمالات متعدِّدة[41]. منهجه هذا لا يمثِّل نزعة أسلوبيَّة فحَسْب، وإنما يعكس خيارًا إبستمولوجيًّا يرفض ادِّعاء الامتلاك النِّهائيِّ للمعنى.

بهذا المنظور يقارب مشروع **كيليطو** ما سمَّاه بول ريكور بـ"الهرمنيوطيقا المتواضعة"، أي تلك القراءة التي تستعمل أدوات التَّحليل دون أن تدَّعي احتواء النَّصِّ أو استنفاد دلالته[42]. إنَّ المنهج عند **كيليطو**– على الجملة –لا يمنح الحقيقة، بل يفتح أفقًا للفهم،ويترك للنَّصِّ حقَّ المقاومة والاختلاف. وهذا ما يجعل تجربته النَّقديَّة، في سياق البحث الجامعيِّ المغربيِّ، مثالًا على إمكان الجمع بين الانفتاح المنهجيِّ والاستقلال المعرفيِّ، دون الوقوع في التَّبعيَّة أو الانغلاق، مع مراعاة لغة الكتابة والحرص على تقريب الشُّقَّة المفهوميَّة وتبنِّي الخطاب المحايث.

3-3-7 - الجماليَّة التَّأويليَّة بين الكشف والإغفال

إذا كان مشروع **كيليطو** النَّقديُّ قد استطاع أن يُحرِّر قراءة التُّراث من أَسْر التَّلقِّيِّ المدرسيِّ الجامد، فإنَّ هذا التَّحرير ذاته أفرز حدودًا منهجيَّة لا يمكن إغفالها في سياق التَّقييم العلميِّ المتأنِّي. كان اختياره الواضح للقراءة الجماليَّة والتَّأويليَّة، وانحيازه إلى لحظة الدَّهشة النَّصِّيَّة، سببًا في جَعْله يُؤْثر ما يمكن تسميته بـ "اقتصاد التَّحليل" على حساب التَّوسُّع الموسوعيِّ والاستقصاء التَّاريخيِّ الشَّامل. لم يكن هذا القيد وليد قصور معرفيٍّ، بل نتيجة قرار نقديٍّ واع يضع النَّصَّ في بؤرة الاهتمام بوصفه حدثًا لغويًّا وجماليًّا، لا بوصفه وثيقة ثقافيَّة مكتمِلة الأركان.

إنَّ كتابة **كيليطو** تنطلق من افتراض ضمنيٍّ مُفاده أنَّ النُّصوص الكبرى في التُّراث الأدبيِّ العربيِّ لا تُستعاد بـ الفهرسة، ولا بإعادة بناء ظروف إنتاجها الخارجيَّة/ التاريخيَّة فحَسْب، بل تُستعاد رأسًا من خلال استنطاق آليات اشتغالها الدَّاخليَّة من أساليب

41 - Kilito, 2005, Le Même et l'Autre, p. 5.
42 - Ricœur, 1976, pp. 79–81.

القول، واستراتيجيَّات الحكي،ومناطق الالتباس التي يخلقه الخطاب لنفسه. غير أنَّ هذا التَّركيز على البنية الجماليَّة والتَّأويل الحرّ قد يُفضي في بعض المواضع إلى إغفال الأسئلة المتَّصلة بالظروف الاجتماعيَّة والتَّاريخيَّة، الَّتي أسهمت في إنتاج النُّصوص، وإلى تقليص مساحة التَّحليل المرتبطة بتحقيق النُّصوص وتتبُّع تداولها عبر العصور[43].

وعليه، فإنَّ اعتماد المناهج الحديثة في قراءة النُّصوص التُّراثيَّة، حين تُنفَّذ ضمن أُفُق جماليٍّ صرْف، يُنْتج مكاسب واضحة على مستوى الكشف الدَّلالي، لكنَّها تترك فراغًا نسبيًّا فيَ ما يتَّصلَ بتأريخ النُّصوص، وفهم علاقتها بالبُنى الاجتماعيَّة والمؤسَّسات الثَّقافيَّة التي نشأت فيها، وهو ما انتهجه **كيليطو** إذ لم يشتغل بإعادة بناء الشَّبكات الاجتماعيَّة للكُتَّاب، ولا بتحليل علاقة النَّص بالواقع السِّياسيِّ أو بالبُنى الاقتصاديَّة، كما هو الحال في مقاربات تاريخيَّة نقديَّة (Historicism / Historismus) أو سوسيولوجيَّة، أوفي أعمال نقديَّة عربيَّة أخرى سعت إلى تأسيس قراءة شاملة تجمع بين التَّحليل النَّصِّيِّ والسِّياق الثَّقافيِّ[44]، كما عند طَهَ حُسَين في (حديث الأربعاء)، أو في الدِّراسات التي استلهمت النَّموذج الموسوعيَّ الكلاسيكيَّ على غرار كتاب "الفِهْرِسْت" لابن النديم.

لا يمكن اعتبار هذا الغياب النِّسْبيَّ للفهرسة الموسوعيَّة نقصًا معيبًا، بحَسْب **عيسى بلَّاطة**، الَّذي رأى أنَّ **كيليطو** يتعامل مع النَّصِّ "بوصفه واقعة لغويَّة تتجدَّد مع كل قراءة، لا بوصفه وثيقة تُختزَل في سياقها التَّاريخيِّ"[45].من هذا المنظور، فإنَّ تخلِّي **كيليطو** عن الصَّرامة الفيلولوجيَّة الصَّارمة لا يعني إهمال النَّص، بل يعني نَقْلَه من حيِّز التَّوثيق إلى حيِّز الفعل القرائيِّ، حيث تصبح القراءةُ نفسُها جزءًا من إنتاج المعنى.

إنَّ المفارقة التي يشتغل من خلالها مشروع **كيليطو** تكمن في هذه الثُّنائيَّة الدَّقيقة؛ سواء بما يتيحه الانتباه الجمالي المكثَّف من الاقتراب من روح النَّصِّ وإعادة إحياء طاقته الإبداعيَّة الكامنة،أو إغفال الإطار الفيلولوجيِّ الصَّارم، ومن ثَمَّ عدم الاهتمام بضبط النَّصِّ ضمن تسلسل تاريخيٍّ دقيق، مما يحول دون التَّوصُّل إلى نتائج يمكن استثمارها في مشاريع بحثيَّة ذات طابع موسوعيٍّ أو تعليميٍّ.لكنَّ لا يمكن عَدُّ هذه الثُّنائيَّة خللًا في المشروع، بقَدْر ما هي أثر مباشر لرهانه الرَّئيس، بحيث جعل القراءة الأدبيَّة فِعْلًا حيًّا، لا تمرينًا أرشيفيًّا.

وبناء على ما سبق، يمكن القول إنَّ حدود التَّأثُّر بالمناهج الغربيَّة في مشروع **كيليطو** لا تتمثَّل في التَّبعيَّة لها، بل في الكُلْفة المعرفيَّة لاختيار نقديٍّ يُفضِّل العمق الجمالي على الاتِّساع السِّياقيِّ، وهو اختيارٌ يظلُّ مشروعًا من منظور النَّقد الأدبيِّ، لكنَّه يطرح

43 – حسين، حديث الأربعاء، ج 1، ص 9–12؛مفتاح، دينامية النص، 1987، ص 23–26.
44 - Kilito,1983, op. cit,pp. 18-20; Kilito, 1992, op. cit, pp.7-9; Boullata, 2009, op. cit,pp.56-60.
45 - Ibid., p. 58.

في السِّياق الجامعيِّ سؤالَ التَّكامل المنهجيِّ بين القراءة التَّأويليَّة والبحث التَّاريخيِّ، لا سيما في أُفق تجديد البحث العِلميِّ في العلوم الإنسانيَّة بالمغرب.

7-3-4 - فرادة مشروع كيليطو وحدود اختلافه

لن تتَّضح ملامح المشروع النَّقدي لـ**كيليطو** وضوحًا شافيًا إلَّا بوضعه في سياق المقاربات العربيَّة التي انشغلت بإعادة قراءة التُّراث الأدبيِّ على اختلاف طرُقِها ومناهجها. المقارنة هنا ليست إجراءً تقويميًّا يسيرًا، بل أداة إبستمولوجيَّة تسمح بتحديد موقع **كيليطو** داخل خريطة النَّقد العربيِّ الحديث، والكشف عمَّا يضيفه فعليًّا إلى سؤال قراءة التُّراث.

أ- كيليطو في مقابل القراءة التَّاريخيَّة-العقلانيَّة (طه حسين نموذجًا)

يُمثِّل مشروع طَهَ حُسَين نموذجًا للقراءة التَّاريخيَّة العقلانيَّة الَّتي تعاملت مع التُّراث بوصفه مادةً قابلة للفحص على وَفْق منطق الشَّكِّ والتَّاريخيَّة النقديَّة (Historicism/ Historismus)، حيث يُقاس النَّصُّ بمدى اتِّساقه مع معايير العقل والسِّياق التَّاريخي العام[46]. فيهذا الأفق، يُقرأ التُّراث بوصفه تعبيرًا عن مرحلة، لا بوصفه نظامًا لغويًّا مفتوحًا على التَّأويل.

أمَّا **كيليطو** فيتحرَّك في اتِّجاه مغاير؛ إذ لا يجعل من التَّاريخ معيارًا حاسمًا لفهم النَّصِّ، ولا من العقل أداة إقصاء، بل من **اللغة ذاتها** مجالًا للتَّحليل. فهو لا يسأل: هل النَّصُّ صحيح تاريخيًّا؟ بل: كيف يعمل النَّصُّ؟ وكيف يبني أثره في القارئ؟ وبهذا ينتقل من نقد "المضمون" إلى نقد "الآلية"، ومن فحص الأفكار إلى تفكيك طرائق القول. هذا التحوُّل لا يلغي قيمة القراءة التَّاريخيَّة، لكنه يعيد ترتيب الأولويات النَّقديَّة، جاعلًا الجماليَّة والسَّرد في صدارة الاهتمام.

إذا كان لكلِّ قراءةٍ للتُّراث مدخلها، فإنَّ مدخل **طَهَ حُسَين** كان التَّاريخ بوصفه ميزانًا، والعقل بوصفه محكًّا. لقد تعامل **طَهَ حُسَين** مع النُّصوص القديمة بوصفها نَتاجًا لظروف تاريخيَّة محدَّدة، قابلة للفحص والنَّقد والشَّك، لا من حيث جماليَّاتها اللُّغويَّة فحَسْب، بل من حيث صِدْقُها التَّاريخيُّ واتِّساقُها مع المعقول. في هذا السِّيَاق، صاغ ما يمكن تسميته بـ "القراءة التَّاريخيَّة العقلانيَّة" (Historicism / Historismus)،الَّتي ترى في التُّراث وثيقةً تعبِّر عن عصرها، وتُقاس قيمتها بمدى انسجامها مع منطق التَّاريخ العام[47].

في هذا الأفق، لا يُقرأ النَّصُّ بوصفه بنية لغويَّة مفتوحة، بل بوصفه شاهدًا تاريخيًّا؛ ومن ثمَّ يغدو السُّؤال الرَّئيس:متى كُتب النَّصُّ؟ ولماذا؟ وتحت أيِّ شروط

46 – حسين، 1926، في الشعر الجاهلي، ص 6 – 12.
47 – المرجع نفسه،ص6–15؛ العروي، 1992، مفهوم التاريخ، ص 79–90.

اجتماعيَّة وثقافيَّة؟ وهو سؤال مشروع في ذاته، غير أنَّه قد يُفضي إلى اختزال النَّصِّ في سياقه، وردِّه إلى أسباب ورودٍ خارجيَّة،على حساب منطقه الدَّاخليِّ وآلياته التَّعبيريَّة.

أمَّا **كيليطو**، فينطلق من فرضية مغايرة: النَّص لا يُستوفى بمعرفة زمنه، ولا يُفهم بالعقل وحده، بل يُفكك من داخله. التَّاريخ عنده خلفيَّة صامتة لا أداة حكم، والعقل وسيلة إنصات لا محكمة إدانة؛ لذلك لا يسأل: هل النَّص صادق تاريخيًّا؟ بلكيف يقول النَّصُّ ما يقول؟ وبأيِّ حيل لغويَّة وسرديَّة يبني أثره؟[48].

هذا التحوُّل من سؤال الصِّدق إلى سؤال الاشتغال، ومن نقد المضمون إلى تحليل الآلية، يمثِّل قلبًا صامتًا للأولويَّات النَّقديَّة. كان **طَهَ حُسَين** يُخضع النَّصَّ لمعيار العقل والتَّاريخ، في حين يجعل **كيليطو** اللُّغة ذاتها موضوعًا للتَّفكير؛ سواء على مستوى تركيب الجملة، أو توزُّع الأصوات، أو لعبة الضَّمائر، أو مفارقات الحكي، أو مناطق الالتباس التي يخلقها الخطاب لنفسه؛ لذلك لوحظ أنَّه يقترب من تقليد عربيٍّ قديم كان يرى البلاغة علمًا يتولَّد من تآلف المعاني وتناسب الألفاظ[49].

ولا يعني هذا أنَّ **كيليطو** يعادي القراءة التَّاريخيَّة أو ينفي ضرورتها؛ بل إنَّه يعيد ترتيب موقعها داخل العمليَّة النَّقديَّة؛ فالتَّاريخ لا يُلغى لكنَّه يُؤجَّل، والعقل لا يُستبعد، لكنَّه لا يُنصَّب قاضيًا، وهو ما ذهب إليه بوضوح حين ذكر أنَّ النَّصَّ الأدبيَّ لا يُقرَأ مرَّة واحدة، ولا يُختزَل في سبب إنتاجه، بل يُعاد اكتشافه كلَّما تغيَّرت زاوية النَّظر[50].

من هنا، تتبدَّى المفارقة بين المشروعين:

- **طَهَ حُسَين** يقرأ التُّراث بوصفه مسألة ينبغي حلُّها تاريخيًّا.
- **كيليطو** يقرأه بوصفه لغزًا ينبغي الإقامة في توتُّره.

وإذا كانت قراءة **طه حسين** قد أسهمت في تحرير العقل العربيِّ من سطوة التَّسليم، فإنَّ قراءة **كيليطو** تُسْهم في تحرير النَّصِّ من ثِقْل الشَّرح الخارجيِّ، وإعادته إلى حيويَّته الأولى بوصفه حدثًا لغويًّا متجدِّدًا؛ لهذا لا يَمكن فهم مشروع **كيليطو** إلا بوضعه في مقابل هذا النَّموذج التَّأسيسيِّ؛ لامن باب المفاضلة، بل من باب اختلاف زاوية النَّظر واختلاف سؤال القراءة.

ب– بين النسق والجمال: كيليطو والنقد الثقافي(الغذامي نموذجا)

يتأسَّس مشروع عبد الله الغذَّامي النَّقدي على تفكيك الخطاب الأدبيِّ من زاوية السُّلطة والنَّسق الثَّقافي، واستنطاق التَّمثيلات الاجتماعيَّة والإيديولوجيَّة الكامنة في

48 - Kilito, 1983, op. cit., pp. 11–14.

49 – الجرجاني، دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص 48.

50 - Kilito, 1992, op. cit., p. 9.

بنية النَّصِّ. يغدو النَّصُّ الأدبيُّ –في هذا الأفق– وثيقةً ثقافيَّة تُقرأ بوصفها حاملًا لنسق مضمَر، تُقاس قيمته النَّقديَّة بقَدْر ما يكشفه من علاقات القهر، وآليات الهيمنة، وأنماطً إنتاج المعنى داخل الثَّقافة[51]. وهكذا ينتقل الاهتمام من النَّص في فرادته الجماليَّة إلى الخطاب في ارتباطه بالبُنى الاجتماعيَّة والمؤسَّسات الرَّمزيَّة التي أنتجته.

في المقابل، لا يُنكر **كيليطو** حضور الثَّقافة في النَّصِّ الأدبيِّ، ولا يعزل العمل عن شرطه التَّاريخيِّ أو اللُّغويِّ، غير أنَّه يرفض أن تتحوَّل الثَّقافة إلى مفتاح القراءة الأوحد، أو أن يُختزل النَّصُّ في كونه مجرَّد وثيقة إيديولوجيَّة. إن اهتمامه موجَّه أساسًا إلى البنية الجماليَّة للنَّص، وإلى ما يسمِّيه "مكر النَّص"،أي تلك الاستراتيجيَّات اللُّغويَّة والسَّرديَّة التي تُربك القارئ، وتُخلخل أفق انتظاره، وتمنح النَّص قدرةً على إنتاج معناه من داخله، لا من خارجه[52].

وانطلاقًا من هذا التصوُّر، يمكن فهم مشروع **كيليطو** بوصفه اشتغالًا نقديًّا يقوم على موازنة دقيقة بين الوعي بالسِّياق التَّاريخيِّ والثَّقافيِّ للنُّصوص، والحرص على عدم تحويل هذا السِّياق إلى سلطة تفسيريَّة تُفرِّغ النَّص من منطقه الدَّاخليِّ. فهو لا يعادي التَّاريخ، ولا يُقصي الثَّقافة، لكنَّه يرفض أن تُلغَى البنية الجماليَّة باسم الكشف النَّسقيِّ، أو أن تُستبدَل القراءة الأدبيَّة بمحاكمة إيديولوجيَّة؛ لذلك تنطلق قراءته من افتراض مُفاده أنَّ النَّص لا يُستعاد حقًّا إلا عبر استنطاق آليات اشتغاله الداخليَّة من طرائق القولِ، وبناء الصَّوت السَّرديِّ، ومناطق الالتباس الدَّلاليِّ، الَّتي تُنتج أثره الجماليَّ في القارئ[53].

لا يخفى أنَّ **كيليطو** يلتقي مع تصوُّرات نقديَّة حديثة ترى أنَّ الأدب لا يُستنفد بوظيفته الثَّقافيَّة، وأنَّ اللُّغة الأدبيَّة تحتفظ دائمًا بفائض دلاليٍّ يتجاوز شروط إنتاجها المباشرة. فالنَّصُّ بحسب هذا التصوُّر، ليس انعكاسًا شفَّافًا للبُنى الاجتماعيَّة، بل بنية رمزيَّة مستقلَّة نسبيًّا، تعمل على وفق قوانينها الدَّاخليَّة، وتقول أكثر مما يُراد لها أن تقول؛ لأنَّ المعنى فيها يتولَّد من التَّوتُّر بين البنية والدَّلالة، لا من الإحالة السِّياقيَّة وحدها[54].

بذلك تتحدَّد المسافة الفاصلة بين مشروع **كيليطو** والنَّقد الثَّقافيِّ لا في الموقف من التُّراث ذاته، بل في طبيعة السُّؤال النَّقديِّ، ففي الوقت الذي يكشف فيه النَّقد الثَّقافيُّ النَّسقَ والسُّلطة غايته القصوى، يُصرُّ **كيليطو** على أنَّ وظيفة النَّقد الأدبيِّ هي الإصغاء إلى منطق النَّص، وإعادة إحياء طاقته الجماليَّة، من غير أن يُختزَل في سياقه، أو يُنزَع عنه طابعه الأدبيُّ لصالح وظيفة تفسيريَّة واحدة.

51 – الغذَّامي، النقد الثقافي، 2000، ص27–41.

52 - Kilito,1996,op. cit., pp. 11–18.

53 - Kilito, 2013, op. cit,pp. 22–30.

54 - Barthes, Le plaisir du texte, 1973, pp. 9–15; Ricoeur, Temps et récit, 1983, vol. 1, pp. 52–60.

إذا كان لكلِّ منهج نقديٍّ مرآته، الَّتي يرى بها النُّصوص، فإنَّ مرآة النَّقد الثَّقافيِّ –كما تكوَّنت في مشروعَ **الغذَّامي**–هي مرآة السُّلطة والنَّسق،لا مرآة اللُّغة لذاتها. إنَّه يقاربُ النَّصَّ الأدبيَّ لا بوصفه بنية جماليَّة مستقلَّة، بل باعتباره وثيقة ثقافيَّة تكشف ما يختبئ خلف البلاغة من أنساق مضمَرة وتمثيلات اجتماعيَّة وآليات إنتاج الهيمنة الرَّمزيَّة. هكذا يغدو الأدب في التَّحليل الثَّقافيِّ ساحةً لتعرية الخطاب أكثر منه فضاءً لتذوُّق الصِّياغة، ويُقرأ من حيث ما يقول عن المجتمع والسُّلطة بقَدْرٍ ما أوأكثرممَّا يقول عن نفسه[55].

يتقدَّم مفهوم "النَّسق" ليصبح مفتاح القراءة، وتُعاد كتابة تاريخ الأدب بوصفه تاريخًا لصراعات ثقافيَّة كامنة، تُحلَّى بأثواب البلاغة وتُكسَى ب أقنعة الجمال. ليس خافيًا أنَّ هذا المنظور يستند في خلفيَّته النَّظريَّة إلى تقاطعات مع أعمال **فوكو** في تحليل الخطاب، ومع دراسات الثَّقافة البريطانيَّة (CulturalStudies) الَّتي نظرت إلى النُّصوص بوصفها ممارسات اجتماعيَّة مشروطة بأنساق السُّلطة والتَّمثيل، لا محض كتابات جماليَّة[56].

أمّا **كيليطو** فيتحرَّك في اتِّجاه آخر،إذ لا يخاصم الثَّقافة، لكنَّه يرفض أن يجعلها الحاكمَ الوحيدَ على النَّص، وإن كان لا ينفي أنَّ النَّصَّ ابنُ بيئته، ولا يُنكر أنَّ الخطاب الأدبيَّ يتقاطع مع أنساق اجتماعيَّة وتاريخيَّة، غير أنَّه يتحفَّظ بوعي منهجيٍّ على تحويل الأدب إلى مجرَّد شاهد إثنوغرافيٍّ أو وثيقة إيديولوجيَّة. إنَّما يشدُّه،في المقام الأوَّل، هو منطق اشتغال النَّص من الدَّاخل، وكيف يُنشئ لغتَه، ويراوغ قارئه، ويبني متعتَه عبر الالتباس والتَّأجيل والانزياح. يشير إلى الحيل السَّرديَّة والبلاغيَّة، الَّتي لا تُختزل في وظيفة ثقافيَّة مباشرة، بل تعمل على إرباك القارئ وإعادة تشكيل أفق انتظاره. النَّصُّ عند **كيليطو**، ليس خطابًا يُفكك فحسب، بل لعبة ذكية تُمارس، وسؤالًا مفتوحًا يُعاد طرحه مع كلِّ قراءة[57].

وهنا يظهر الفرق الجوهريُّ بين مقاربة النَّقد الثَّقافيِّ التي تجنح إلى ردِّ الجماليِّ إلى النَّسقيِّ، أي تفسير البلاغة بوصفها قناعًا للسُّلطة، وبين نَقْد **كيليطو** الَّذي يسعى إلى تحرير الجماليِّ من التَّفسير الاختزاليِّ، دون أن يعزله عن العالم.

وبلغة أقرب إلى منطق **الجاحظ** (ت 255هـ/ 869م)، يمكن القول إنَّ الأدب لو قُرئ بما يحمله منً إيديولوجيا–فقط –، لكان كلُّ حَسَن فيه عَرَضًا زائلًا، ولكان اختلاف الأساليب لَغْوًا لا طائلتحته؛ غير أنَّ النُّصوص كماً يدلُّنا التُّراثُ البلاغيُّ نفسُه،تعيش بطبقاتهاوتدوم بصَنْعتها،لابوضوح مقاصدها[58]. في حين يرى **كيليطو** أنَّ اختزال النَّصِّ

55 – انظر الغذَّامي، 2000، مرجع سابق، ص 11–15؛ وانظر أيضًا: الغذَّامي، المرأة واللغة، 1996، ص 27–33.
56 - Foucault, L'ordre du discours, 1971, pp. 10–25; Hall, Representation, 1997, pp. 13–44.
57 - Khatibi, Figures de l'étranger, 1987, pp. 61–73; Kilito, 1983, op. cit., pp. 9–15.
58 – انظر الجاحظ، البيان والتبيين (1/ 75–78).

الأدبيِّ في وظيفته الثَّقافيَّة أو التَّفسيريَّة يُفقده قدرته على الإدهاش، ويحوِّله من كائن لغويٍّ حيٍّ إلى مجرَّد وثيقة تُستنفَد بالشَّرح، وهو ما يتعارض مع طبيعة الأدب القائمة على الغرابة والالتباس ومراوغة المعنى[59].

تنبَّه عددٌ من الدَّارسين المعاصرين إلى هذا الاختيار المنهجيِّ في مشروع **كيليطو**، دون أن يصوغوه في إطار نظريٍّ واحد؛ فقراءة **كيليطو** في مجملها، تُبدي تحفُّظًا واضحًا إزاء الاختزال السُّوسيولوجيِّ الجاهز، وتقاوم ردَّ النَّصِّ الأدبيِّ إلى وظيفة ثقافيَّة أحاديَّة، انطلاقًا من وعي بأنَّ اللُّغة الأدبيَّة لا تقول ما يُراد لها أن تقول فقط، بل تُنتج فائضًا دلاليًّا يتجاوز مقاصد الخطاب وسياقاته المباشرة، مع التَّنبيه إلى أنَّ اشتغاله النَّقديَّ لا يقوم على معاداة التَّاريخ أو إنكار أثر السِّياق، بقَدْر ما يقوم على رفض التَّضحيَّة بالبنية الجماليَّة والتَّعقيد اللُّغويِّ باسم التَّفسير السِّياقيِّ الشَّامل، وهو موقف يتبدَّى بوضوح في تحليلاته للسَّرد العربيِّ القديم، حيث يُقدَّم النَّصُّ بوصفه نظامًا لغويًّا مراوغًا لا وثيقةً ثقافيَّةً مغلقة[60].

يمكن القول إنَّ مشروع **كيليطو** يلتقي مع بعض أطروحات النَّقد الثَّقافيِّ في عدم إنكار البعد التَّاريخيِّ والاجتماعيِّ للنُّصوص، لكنَّه يفترق عنها افتراقًا جوهريًّا حين يرفض إخضاع البنية الجماليَّة لوظيفة كشف السُّلطة أو النَّسق الثَّقافي بوصفه معيارًا حاكمًا للقراءة،ويظلّ السِّياق عنده أفقًا مساعدًا على الفهم، لا سلطة تفسيريَّة نهائيَّة، وهو ما يميِّزه بوضوح عن المقاربة الثَّقافيَّة كما صاغها **الغذَّامي**، الَّتي تجعل من مفهوم "النَّسق" مفتاحًا مركزيًّا لقراءة الأدب وردِّ بلاغته إلى تمثيل ثقافيٍّ مُضمَر[61].

وعلى هذا، لا يصحُّ أن يُفهَم موقف **كيليطو** بوصفه انسحابًا من أسئلة الثَّقافة، ولا موقف **الغذَّامي** بوصفه عداءً للجماليَّات؛ إنَّما نحن أمام اختلاف في ترتيب الأولويات؛ فالغذامي يَعدُّ النَّسق أوَّلًا والجماليَّ تابع.في حين يُعَدُّ هذا الأخير عند **كيليطو** هو الأصل، والثَّقافي هو مجرد أحد مستوياته التَّفسيريَّة الممكنة.

بيد أنَّه ينبغي الإلماع إلى أنَّ هذا الاختلاف لا يُقاس بمعيار الصَّواب والخطأ، بل بمعيار الرِّهان المعرفي؛ ف**كيليطو** يراهن على إبقاء الأدب في منطقة التَّوتُّر بين المعنى واللَّعب، وبين التَّاريخ واللُّغة، رافضًا أن يُحسَم النَّصُّ في قراءة واحدة، أو أن يُستنفَد في وظيفة بعينها. إنه يقدِّم مشروعه بديلًا نقديًّا لا يناقض النَّقدَ الثَّقافيَّ، لكنَّه يحدُّ من تغوُّله، ويذكِّر بأنّ لكلِّ علم حدودَه، وأنَّ الخلط بين المقاصد يُفسِد النَّظر، ويُعمي عن دقائق الصَّنعة.

59 - Kilito, Littérature et étrangeté, 1980, pp. 9–15.
60 - Ibid.; Kilito, 1985, op. cit., pp. 21–27.
61 – انظر الغذَّامي، 2000، مرجع سابق، ص 23–41.

ج– كيليطو وتحويل السؤال البنيويّ (محمد مفتاح نموذجًا)

لئن كان النَّقدُ البنيويُّ قد أُسِّس في الغرب على تصوُّر رياضيٍّ محكم للنُّصوص، فإنَّ التَّبنِّيَّ العربيَّ الصَّارم لهذا المنهج، كما في أعمال **محمد مفتاح**، أظهر قدرة هائلة على ضبط النُّصوص ضمن نماذج تحليليَّة دقيقة، مع التَّركيز على الوظائف اللُّغويَّة، والتَّكرار الصَّوتي، والعلاقات الدِّلاليَّة بين الوحدات الصُّغرى والكبرى للنَّصِّ؛ وذلك لأنَّه تعامل مع البنيويَّة بوصفها جهازًا تحليليًّا مكتمل البنية، يقوم على تحديد المستويات، وضبط العلاقات، وبناء النَّماذج التَّفسيريَّة القابلة للتَّعميم، بحيث يغدو النَّصُّ مجالًا لاختبار صلاحيَّة النَّموذج ومدى قدرته على الإحاطة ببنيته الدَّلاليَّة[62].

قد جلب هذا التَّوجُّه صرامة علميَّة للنَّقد العربيِّ، وجعل من القراءة البنيويَّة أداة موثوقة لتتبُّع البنية الدَّاخليَّة للنُّصوص، لكنَّه في المقابل عرَّض النَّصَّ أحيانًا لخطر التَّجريد المفرط، بحيث يُصبح الأدب مجرَّد معادلة تحليليَّة، تُحسَب وتُوصف على وَفْق صيغ رياضيَّة، من دون أن تلمس روح النَّصِّ ولا تعيش تجربته الجماليَّة. كما لاحظ هاريس أنَّ البنيويَّة الصَّارمة قد تؤدِّي أحيانًا إلى "أدلجة المنهج"، أي تحويل الأدوات النَّظريَّة إلى قوالب مغلقة تفرض تفسيرًا وحيدًا على النُّصوص وتُعرِّضها–أحيانًا–لخطر التَّحويل إلى بنية مجرَّدة[63].

أمَّا **كيليطو**، فإنَّه لا يرفض البنيويَّة ولا يتنكَّر لمكاسبها، بل يستعين بها بوصفها أداة تقريب لفهم اشتغال النُّصوص، لا باعتبارها قالبًا حاكمًا يقيِّدها. إنَّ المفاهيم البنيويَّة عنده من مثل الزَّمن السَّرديِّ، والضَّمائر، والسَّرد داخل السَّرد، تُستخدم لتسليط الضَّوء على ديناميَّة النَّصِّ، لا لاحتوائه في معادلة جامدة. بهذا، يظلُّ التَّحليل مفتوحًا ومتعدِّد الطَّبقات، قابلًا للمراجعة، ويتأرجح بين التَّفصيل الدِّلالي والمتعة الجماليَّة للنَّصِّ، وهو ما يفتقده التَّطبيق الصَّارم للبنيويَّة في السِّياق العربيِّ[64].

إنَّنا هنا أمام موقف منهجيٍّ متقدِّم، ذلك أنَّ **كيليطو** يختار الوسائل دون القوالب، والأدوات دون الأطر الجاهزة. إنَّه يحافظ على حرِّيَّة النَّصِّ وسَعة التَّأويل، بحيث لا تُقصَر القراءة على كشف البنية وحدها، بل تمتدُّ لتشمل أثر النَّصِّ على القارئ، وانزياحه، ولعبه الدَّاخلي مع اللُّغة. هذا الرِّهان، صرح به **كيليطو** في أكثر من موضع، حين أكَّد أنَّ المناهج ليست إلَّا أدوات تفكير، لا صيغًا تفسيريَّة مغلقة، وأنَّ القراءة فعلٌ حواريٌّ دائم مع النَّصِّ لا ينتهي إلى نتيجة نهائيَّة؛ وهو ما يمنح مشروعه النَّقدي مرونة، ويخلق حوارًا بين الأدوات الغربيَّة والحسَّ النَّقديَّ العربيَّ، دون استلاب النَّصِّ أو إخضاعه لمعادلة واحدة[65].

---

62 – مفتاح، 1987، مرجع سابق، ص 15–20.

63 - Harris, Structuralism and Literary Analysis, 1992, pp. 33–40.

64 - Kilito, 1992, op. cit., pp. 12–15.

65 - Kilito, 2013, op. cit, pp. 15–19; Kilito, 1992, op. cit.,pp. 7–11.

من هنا، يمكن القول إنَّ **مفتاح** يطمح إلى تحقيق علميَّة القراءة عبر إحكام أدواتها، فيحين يراهن **كيليطو** على حفظ حيويَّة النَّصِّ عبر إبقاء القراءة في حالة توتُّر منتج. ولمَّا كان التَّشديد البنيويُّ عند **مفتاح** يُفضي إلى تقليص هامش الالتباس لصالح الوضوح البنيويِّ، يتعمَّد **كيليطو** الإبقاء على مكامن الغموض، معتبرًا أنَّها ليست نقصًا في الفهم، بل شرطًا من شروط الأدبيَّة ذاتها، ويكون بذلك افتتح المسافة الحرَّة بين المنهج الغربيِّ الصَّارم والتُّراث العربيِّ، مظهرًا كيف يمكن للآليات البنيويَّة أن تخدم النَّصَّ لا أن تُسيِّره، ومُبديًا أنَّ النَّقد البنيويَّليس نهاية بل بداية سؤالٍ متواصل عن النَّصِّ وأفق قراءته.

بهذا المعنى، لا يمثِّل مشروع **كيليطو** نفيًا للبنيويَّة، كما لا يمثِّل مشروع **مفتاح** إنكارًا للجماليَّة، بل نحن إزاء اختلاف في ترتيب الأولويَّات المنهجيَّة؛ فالمنهج عند **مفتاح** يُنظِّم القراءة؛ وعند **كيليطو**، القراءة تُربك المنهج. من هذا الاضطراب الخلَّاق تتولَّد إحدى أهم سمات النَّقد الأدبيِّ المغربيِّ المعاصر، حيث يتجاور الانضباط العلميُّ مع الحرِّيَّة التَّأويليَّة دون أن يُقصي أحدهما الآخر.

د- كيليطو في مقابل المشاريع المؤسِّسة والشِّعريَّة (جابر عصفور ومحمد بنّيس)

ينتمي **عصفور** إلى نمط من النقد الحديث جعل من بناء المشروع الثقافيِّ المؤسِّس رهانه الرَّئيس، إذ لم يكتف بقراءة النُّصوص مُفرَدَة، بل سعى إلى إعادة ترتيب مفاهيم الحداثة والنَّقد والتَّقليد، ضمن أُفُق نظريٍّ عامٍّ يطمح إلى إرساء معايير جديدة للدَّرس الأدبيِّ في السِّياق العربيِّ[66]. ومن ثَمَّ، يغدو التُّراث في كثير من تحليلاته، جزءًا من معركة فكريَّة أوسع، يُقاس فيها النَّصُّ بمدى قابليَّته للاندراج في مشروع التَّحديث الثَّقافيِّ والعقلانيِّ العامِّ[67].

في حين ينطلق **بنّيس** من أفق يقوم على الحسِّ الشِّعريِّ والرِّهان الحداثيِّ الجذريِّ،حيث لا يُستدعى التُّراث بوصفه مادَّة للتَّحليل السَّرديِّ أو البلاغيِّ، بل بوصفه مخزونًا تخييليًّا يُعاد تشكيله وإعادة كتابته داخل مشروع شعريٍّ يسعى إلى تفجير اللُّغة وكسر أنماطها الموروثة، حتَّى وهي تتحاور مع الماضي[68].

في المقابل، يشتغل **كيليطو** خارج منطق المشروع الشَّامل أو البيان النَّظريِّ؛ فهو لا يعلن برنامجًا نقديًّا، ولا يؤسِّس مدرسة، بل يقدِّم مشروع قارئ يُعْنَى بالنُّصوص المُفرَدة، والمقاطع الهامشيَّة -أحيانًا - مستخرجًا منها أسئلتها الصَّامتة ومفارقاتها الداخليَّة ومناطق الالتباس، الَّتي تُغفلها القراءات الكلِّيَّة[69].

66 – عصفور، 1994، مفهوم الشعر، ص 9–15.

67 – عصفور، 2000، مفهوم النقد، ص 45–60.

68 – بنيس، ظاهرة الشِّعر المعاصر في المغرب، 1979، ص 47–55.

69 - Kilito, 1992, op. cit., p. 15.

بهذا المعنى، يختلف مشروع **كيليطو** عن مشروعي **عصفور** وبنّيس في ترتيب الأولويَّات، لا في القيمة أو الأهمِّية، ذلك أنه عند **عصفور**، يتقدَّم الهمُّ المؤسَّسي وبناء المفاهيم النَّقديَّة العامَّة؛ وعند بنّيس، تتصدَّر الكتابة الشِّعريَّة بوصفها فعل قطيعة جماليَّة؛ أمَّا عند **كيليطو**، فالأولويَّة للنَّص ذاته، لا بوصفه مثالًا على فكرة، ولا مادة لتخييل جديد، بل بوصفهكائنًا لغويًّا حيًّا، يشتغل بمكره، ويقاوم الاستنفاد، ويظلُّ مفتوحًا على تعدُّد القراءات[70].

ومن هنا تنبع خصوصيَّة موقعه داخل النَّقد العربيِّ المعاصر؛ إذ إنَّه لا ينافس هذه المشاريع في ميدانها، ولا يعارضها من حيث المبدأ، بل يشتغل في فضاء أقل صخبًا وأكثر تدقيقًا؛ أي فضاء الإصغاء إلى ما يقوله النَّصُّ حين يُترك لآلياته الدَّاخليَّة، وحين لا يُطالَب بأن يسوِّغ وجوده ضمن مشروع ثقافيٍّ أو شعريٍّ سابق عليه. ومن ثَمَّ، فإنَّ **كيليطو** يلتقط ما يفلت من القراءات المؤسِّسة والبيانيَّة، ويمنح الهوامش والنَّوادر، والمقاطع الصَّغيرة، قدرة على زعزعة التَّصوُّرات الكبرى نفسها[71].

وعليه، لا يصحُّ فهم هذا الاختلاف بوصفه تعارضًا بين مشاريع متنافرة، بل بوصفه اختلافًا في الرِّهان المعرفيِّ، بين النَّقد أداة تنظيم وبناء (عند **عصفور**)، والكتابة فعل اختراق وتجاوز (عند **بنّيس**)،والقراءة تجربة اختبار تُبقي الأدب في حالة توتُّر مبدع بين اللُّغة والتَّاريخ، وبين المعنى واللعب، دون أن تُحسم دلالته في أفق واحد أو وظيفة بعينها (عند **كيليطو**).

وإجمالًا، فإنَّ **كيليطو** يشغل بجماع هذه المقارنات موقعًا وسيطًا دقيقًا في النَّقد العربيِّ المعاصر، فلا هو تراثيٌّ تقليديٌّ يعيد إنتاج الشُّروح، ولا هو حداثيٌّ إسقاطي يفرض على النَّص نماذج وافدة،ولا هو مؤرِّخ ثقافيٌّ يذيب الأدب في السِّياق. إنَّه، بالأحرى، يسعى إلى ما يمكن تسميته بـ صاحب "المنزلة الثَّالثة" قراءة تجعل النَّصَّ التُّراثيَّ في تماسٍّ حيٍّ مع قارئ معاصر، دون أن تُفقده خصوصيَّته اللُّغويَّة والتَّاريخيَّة، أو هكذا يُفترَض؛ لذلك يمكن توصيف هذا المنزلة بأنَّ **كيليطو** لا يريد أن يشرح التُّراث،بل يريد أن يعيد إلينا دهشتنا أمامه.

وبناء على كل ما سبق، فإنَّ هذا الفصل يبيِّن أنَّ حضور المناهج الغربيَّة في مشروع **عبد الفتاح كيليطو** لا يمكن اختزاله في ثنائيَّة الاستيراد أو التَّبعيَّة– كما توهَّم بها مَن توهَّم – ولا في خطاب القطيعة مع التُّراث؛ بل يتبدَّى بوصفه تفاعلًا نقديًّا انتقائيًّا، تشكَّل داخل سياق جامعيٍّ مغربيٍّ واعٍ بأسئلة المنهج وحدود صلاحيَّته. تعامل **كيليطو** مع

70 - Kilito, Le discours arabe, 1983, pp. 112–114; Kilito, 2013, op. cit, pp. 22–25.
71 - Kilito, 1992, op. cit, pp. 17–20.

البنيويَّة والسَّرديات الحديثة والدِّراسات المقارنة والتَّحليل النَّصِّيِّ بوصفها أدوات إجرائيَّة تُضيء النَّص ولا تُصادره، وتُحرِّك السُّؤال ولا تُغلق أفق التَّأويل.

تكشف المباحث السَّابقة أنَّ قوَّة مشروعه تكمن في قدرته على تحرير النَّصِّ التُّراثيِّ من القراءة الاختزاليَّة، سواء أكانت تاريخيَّة نقديَّة (Historicism / Historismus) تُثقله بالسِّياق وحده، أم إيديولوجيَّة تُحمِّله ما لا يحتمل، أم بنيويَّة صارمة تختزله في نموذج ما. في مقابل هذه الاتجاهات، اختار **كيليطو** أن ينحاز إلى القراءة الجماليَّة المتفكرة، التي ترى في النَّصِّ حدثًا لغويًّا وسرديًّا متجدِّدًا، لا وثيقة جامدة ولا معطًى نهائيًّا.

غير أنَّ هذا الاختيار الجماليَّ، على ما يمنحه من قدرة على إحياء النُّصوص وإعادة إدخالها في مدار القراءة المعاصرة، يُظهر في الوقت ذاته حدودًا منهجيَّة لا يمكن إغفالها؛ إذ إنَّ التَّركيز على لحظة القراءة وتأثيرها قد يأتي أحيانًا على حساب الإحاطة الموسوعيَّة، أو التوسُّع في دراسة الشُّروط الاجتماعيَّة والتَّاريخيَّة لإنتاج النَّصِّ. غير أنَّ هذه الحدود لا تُفهم بوصفها نقصًا في المشروع، بل باعتبارها ثمنًا إبستمولوجيًّا واعيًا لرهانٍ نقديٍّ يفضِّل عمق السُّؤال على شموليَّة الإحاطة.

بهذا، يُسهم مشروع **كيليطو** في ترسيخ نموذج نقديٍّ عربيٍّ معاصر يفتح "مقامًا ثالثًا" بين التُّراث والحداثة، مقامًا لا يستنسخ المناهج الغربيَّة، ولا يكتفي بترديد مقولات القدماء، بل يعمل على مساءلة الاثنين معًا من داخل النَّصِّ. من هنا تتبدَّى أهمِّيَّة مشروعه لا بوصفه نهاية لمسار قراءة التُّراث، بل بوصفه لحظة مفصليَّة تمهِّد لإمكانات بحثيَّة لاحقة تُعيد وصل القراءة الجماليَّة بالتَّأريخ والتَّوثيق، وتُوسِّع أفق النَّقد العربيِّ دون التَّفريط في حِسِّه اللُّغويِّ والبلاغيِّ العميق.

8 – كيليطو في ميزان النقد

إذا كان مشروع **كيليطو** قد حظي باستحسان نقديٍّ داخل المغرب وخارجه، فإنَّه لم يَسلم في الوقت ذاته من جملة انتقادات، تباينت مصادرها وتعدَّدت منطلقاتها. هذا التعدُّد، الذي يُعدُّ علامة على أنَّ المشروع لم يكن عابرًا ولا هامشيًّا، بل مشروعًا أزعج عادات القراءة، وخلخل توقُّعاتها المسبقة.

على أن قصدنا هنا ليس جمع الاعتراضات سردًا، ولا تصنيفها تصنيفًا شكليًّا، بل إعادة قراءتها في ضوء منطق المشروع نفسه؛ أي في ضوء ما وعد به **كيليطو**، لا ما طُلب منه أن يكونه. ذلك أنَّ الإنصاف النَّقديَّ إنَّما يكون بمراعاة حدود العلم وغايته، لا بمحاسبته على ما لم يدخل في بابه.

بقدر ما يتداول النَّقد العربيُّ الحديثُ أسماء ومشاريع نقديَّة متعدِّدة، فإنَّه نَدُرت النُّصوص النَّقديَّة العربيَّة، التي تتناول **كيليطو** ومنهجه النَّقديَّ بالتَّقييم المباشر والاتِّهام السَّلبي. بيد أنه برزت دراسات مغربيَّة تسائل منهجه من الدَّاخل، صادرة من باحثين يشتغلون ضمن الحقل الأدبيِّ نفسه، ويشتركون معه في المرجعيَّة الحداثيَّة، وإن اختلفوا معه في ترتيب الأولويَّات المنهجيَّة. لهذا، فإنَّ هذه الانتقادات لم تأخذ طابع الرَّفض أو التَّفكيك الجذريِّ، بل جاءت في صورة مُساءلات صريحة طُرحت في سياق جامعيٍّ وحواريٍّ واضح.

لذا، فإنَّ أبرزَ انتقاد مغربيٍّ صريح وُجِّه إلى **كيليطو** يتعلَّق بغياب النَّموذج التَّحليليِّ الإجرائيِّ القابل للتَّكرار في كتاباته، وهو اعتراض طُرح في سياق جامعيٍّ واضح، حيث يُنتظَر من النَّقد أن يقدِّم أدوات قابلة للتَّقعيد والتَّعميم. غير أنَّ **كيليطو** واجه هذا الاعتراض منذ بدايات مشروعه بتحديد صريح لموقع كتابته، إذ يؤكِّد أنَّه لا يطمح إلى اقتراح منهج للقراءة، بقدر ما ينشغل بأثر النَّصِّ في قارئه، وبالطَّرائق التي يُربكه بها ويُفلت من التَّوقُّعات الجاهزة[72].

يندرج هذا الاعتراض ضمن سياق أوسع، هو ترسُّخ مطلب العلميَّة الإجرائيَّة في الجامعة المغربيَّة، خصوصًا مع صعود البنيويَّة والسِّيميائيات منذ سبعينيات القرن الماضي. في هذا السِّياق، بدا مشروع **كيليطو**،القائم على القراءة الحرَّة والتَّأويل المتردِّد، مشروعًا عصيًّا على الإدماج البيداغوجيِّ. وقد أشار **محمد برَّادة**، في سياق حديثه عن تحوّلات النَّقد المغربيِّ، إلى هذا التَّباين بين اتجاهين؛ اتجاه راهن على بناء أجهزة تحليليَّة صارمة ذات طابع إجرائيٍّ، وآخرَ اختار الكتابة النَّقديَّة بوصفها مغامرة قراءة وتأويل،وبالرُّغم من أنَّبرَّادة لم يقدِّم حُكمًا تقويميًّا، فإنَّ هذا التَّوصيف استُخدم في النِّقاش الجامعيِّ لتفسير التَّحفُّظ المنهجيِّ إزاء **كيليطو**[73].

وإلى جانب مسألة المنهج، برز نقدٌ مغربيٌّ آخر، لا يقلُّ صراحة، يتعلّق بلغة **كيليطو** نفسها؛ فقد اعتُبر أسلوبُه، القائم على المفارقة والإيحاء وبناء المعنى عبرالالتباس، عائقًا أمام تحويل نصوصه إلى مواد تعليميَّة واضحة. وقد صاغ **بنعبد العالي** هذا الاعتراض في إطار أوسع، حين ناقش طبيعة الكتابات التي تقاوم الاطمئنان المنهجيَّ، وتراهن على إبقاء القارئ في حالة يقظة وتأهُّب، وهو توصيف يمكن أن يُدرج ضمنه أسلوب **كيليطو**، الذي لا ينخرط بسهولة في منطق الدَّرس الجامعيِّ الإجرائيِّ[74].

---

72 - Kilito, 1992, op. cit, p. 14.

73 – انظر برادة، أسئلة الرواية، 1996، ص 140–145.

74 – انظر بنعبد العالي، الفلسفة والترجمة، 2004، ص 85–90.

في مواجهة هذه الانتقادات، لا يدافع **كيليطو** عن مشروعه عبر تقعيد نظريٍّ مباشر، بل يصرُّ في أكثر من موضع، على أنَّ النَّصَّ الأدبيَّ لا يُسلِّم معناه دفعةً واحدة، وأنَّ القراءة، التي تدَّعي استنفاده إنما تُغلقه وتُفقده عنصر الإدهاش الذي يمنحه حيويَّته، ويؤكِّد أنَّ ما يُنظر إليه بالمنظار الجامعي الصَّارم أنَّه "نقص منهجيٌّ" هو شرط من شروط الأدبيَّة ذاتها.

وكما سلف الذكر، فإنّ **كيليطو** يعيد توجيه قراءة التُّراث من البحث عن المعنى الجاهز إلى فحص آليات اشتغال النَّصِّ نفسه، أي من سؤال "ماذا يقول النَّص؟" إلى سؤال "كيف يُنتج معناه؟". ويؤكِّد أنَّ الالتباس والتَّكرار والمراوغة البلاغيَّة عناصر بنيويَّة في الخطاب الأدبيِّ، لا عوائق تفسيريَّة، وأنّ النَّصَّ لا يُستنفد في قراءة واحدة ولا يُختزل في وظيفة محدَّدة. كما أنَّه لا ينفي السِّياق التَّاريخيَّ، وإن كان يرفض إخضاع البنية الأدبيَّة لمنطق التفسير الإيديولوجيِّ المباشر، مكتفيًا بجعل السِّياق أفقًا مساعدًا للفهم لا معيارًا حاكمًا للقراءة.

وعلى الرغم من تماسك هذا التصوُّر القرائي، فإنَّ مشروع **كيليطو** لا يخلو من حدود منهجيَّة ظاهرة، ذلك أن اختياره الإقامة في منطقة وسطى بين الأدبيَّة والسِّياق يجعلهُ في نظر بعض النُّقَّاد، متحفِّظًا إزاء المعالجة المباشرة لأسئلة الرَّاهن الثَّقافيِّ، بما فيها قضايا السُّلطة والتَّمثيل والوظيفة الاجتماعيَّة للتُّراث. إضافة إلى أنَّ امتناعه المقصود عن تقديم خلاصات تركيبيَّة أو مواقف تقريريَّة قد يضع القارئ غير المتمرِّس في وضع إشكاليٍّ، إذ تظلُّ القراءة مفتوحة دون علامات إجرائيَّة واضحة، أو أفقٍ منهجيٍّ يُمكنُ الرُّكون إليه في الدَّرس الأكاديميِّ.

لكن، يمكن القول إنَّ بعض الانتقادات قد وقعت في خلل منهجيٍّ حين حاكمت مشروع **كيليطو** بمعايير لا تندرج ضمن نسقه المنهجيِّ، وطالبت قراءته الأدبيَّة بأن تؤدِّي أدوارًا ليست من رهاناته، كأن تحلَّ محلَّ النَّقد الثَّقافيِّ، أو أن تنتج جهازًا تعليميًّا إجرائيًّا مكتملًا، وهذا قد يؤدِّي على الأغلب، إلى خلط بين المقاصد والمجالات، لا إلى تقويم دقيق للمنهج؛ لذلك من مظاهر فساد النَّظر تحميلُ العلوم ما ليس من موضوعها ما يورثُ هذا الالتباس، إذ لا يُقاس الاشتغال الأدبيُّ بما يُطلَب من خطابٍ وظيفيٍّ أو تقعيديٍّ صرف. وهو ما صنعت بعضُ القراءات حين حاكمت **كيليطو** بمعايير لا تندرج في منهجه، فطالبت قراءته الأدبيَّة بأن تقوم مقام النَّقد الثَّقافيِّ، أو أن تؤدِّي وظيفة التَّعليم المنهجيِّ الصارم.

9 – موقع كيليطو داخل العلوم الإنسانيَّة وآفاق البحث النَّقديِّ

في رحاب النَّقد الأدبيِّ المغربيِّ، يعدُّ اسم عبد الفتاح **كيليطو**مرجعًا نقديًّا، بالرُّغم من أنَّه لا ينتمي إلى المدارس المؤسِّسة أو البرامج الجامعيَّة الصَّارمة– كما سلف الذكر – بل يقدِّم مشروع قراءة حيويٍّ يجعل من النُّصوص التُّراثيَّة العربيَّة ساحة للتَّأمُّل المعرفيِّ، ومن القراءة نفسها فعلًا تتداخل فيه المتعة والتَّأويل. وقد انعكس هذا التَّوجُّه في الجامعة المغربيَّة والبحث العلميِّ، حيث أصبح منهج **كيليطو** محورًا لدراسات متعدِّدة حول مقامات الحريريِّ، وألف ليلة وليلة، وكتاباته السَّرديَّة الأخرى.

أولًا: أثر مشروعه في الجامعة المغربية والبحث العلميِّ

لا يخفى أنَّ مشروع **كيليطو** شكَّل جسرًا بين التُّراث العربيِّ ومناهج التَّحليل الحديثة، فقراءته لا تكتفي بتقعيد المعنى التَّاريخيِّ،بل تسمح باكتشاف طبقات النَّصِّ المخفيَّة. أثمرت هذه المقاربة عن أثر ملموس في البحث الجامعيِّ المغربيِّ، وصارت قراءة التُّراث مادة خصبة للتَّحليل النَّقديِّ بحسب منظور **كيليطو**، بعيدًاعن الجمود التَّاريخيِّ أوالإطار التَّعليميِّ الجامد. وأظهرت بعض الدِّراسات الجامعيَّة المغربيَّة، كيف أن تحليل **كيليطو** يمنح التُّراث السَّردي القديم حياة جديدة ويجعله قابلًا للنَّقد المعاصر، بعيدًا عن الحشو الجامد أو النَّظرة التَّاريخيَّة الجوفاء. إنَّ ما يميِّز أثر **كيليطو** في الحقل الأكاديميِّ هو إبقاء القراءة نفسها موضوعًا للبحث، بحيث يكون الطَّالب والباحث مشاركًا في صنع المعنى، لا مجرد متلقٍّ لمضمون ثابت.

ثانيًا: إمكانات دمج التُّراث بالمناهج الحديثة

من أبرز إسهامات **كيليطو**– كما أسلفتُ –القدرة على دمج التُّراث العربيِّ بالمناهج النَّقديَّة الحديثة، دون أن يُسلب النَّص أصالته أو يفرض عليه قوالب جاهزة. كانت قراءته للتُّراث تراعي التَّوازن بين الالتزام بالنُّصوص القديمة والانفتاح على أدوات التَّحليل البنيويِّ والسَّرديِّ واللِّسانيِّ ؛ وهو ما يجعل أعماله مرجعًا موثوقًا للباحثين الرَّاغبين في تقديم نقد متجدِّد يرتكز إلى فهم معمَّق للُّغة والنَّصِّ.

وبتوجيه من هذا المنهج، يمكن للباحث المغربيِّ أن يجمع بين قراءة النَّصِّ من الدَّاخل، أي تتبُّع آليات اشتغاله اللُّغويَّة والسَّرديَّة من جهة، وبين وضعه في سياقه الثَّقافيِّ والتَّاريخيِّ من جهة أخرى. هذا التَّكامل يفتح أفقًا إبداعيًّا لتدريس التُّراث بطريقة جديدة، بحيث يبقى النَّصُّ حيًّا وقادرًا على مفاجأة القارئ وإعادة إنتاج المعنى عبر أجيال مختلفة.

ثالثًا: دور كيليطو في تشجيع التَّفكير النَّقديِّ والتَّحليليِّ

ومن خلال ما تقدم، فالمشروع النَّقديَّ لـ **كيليطو** يشجِّع الطُّلَّاب والباحثين على التَّفكير النَّقديِّ والتَّحليليِّ، فهو يحثُّهم على استكشاف النُّصوص، لا مجرَّد حفظها أو تطبيق معايير جاهزة، ويترك هامشًا للتَّأويل، باعتبار أنَّ هذا اللَّايقين المنهجيَّ جزءٌ من العمليَّة النَّقديَّة نفسها. كما أنَّ أسلوبه النَّقديَّ يعلِّم الباحث المغربيَّ صبر القراءة ومكامن التَّأمُّل في النُّصوص التُّراثيَّة، ويمنحه القدرة على التَّعامل مع تعقيدات النُّصوص الَّتي قد تُغفل عنها مناهج التَّحليل التَّقليديَّة.

رابعًا: أفق بناء مدرسة نقديَّة مغربيَّة حديثة

يمكن وصف تجربة **كيليطو** بأنَّها نموذجٌ لبناء مدرسة نقديَّة مغربيَّة حديثة قائمة على التَّفاعل بين التُّراث والمعرفة المعاصرة، وإبقاء النَّص في حالة توتُّر خلَّاق بين المعنى واللُّغة، وتشجيع التَّأويل الحرِّ، مع احترام النَّصِّ والتَّاريخ الثَّقافيِّ.

مع العلم إنَّ هذا المشروع لا يخلق مدرسة بالمعنى التَّقليديِّ، لكنَّه يضع أساسًا فلسفيًّا ومنهجيًّا يتيح للباحثين الجدد ابتكار مقاربات نقديَّة تحترم النَّصَّ وتستفيد من المناهج الحديثة.

عموما، فإنَّ أثر **كيليطو** في العلوم الإنسانيَّة بالمغرب، يُظهر أنَّالنَّقد الأدبيَّ ليس مجرَّد أداة لإثبات المعرفة أو تعليمها، بل هو فعل حيٌّ، يَمسُّ النَّصَّ والقارئ والبحث العلميَّ. ومن خلال تجديد مقاربة التُّراث يصبح بالإمكان الاستفادة من التُّراث العربيِّ لتطوير النَّقد الأدبيِّ المغربيِّ، مع ضمان أنْ يبقى النَّصُّ حيًّا، وأن يحترم أصالته، وأن يظلَّ النِّقاشُ النَّقديُّ مرنًا ومتجدِّدًا، وأن يجعل من النُّصوص موضوعًا للبحث التَّأمُّليِّ والتَّحليليِّ، لا مجرَّد مواضيع عابرة للدَّرس التَّاريخيِّ.

خاتمة

إذا كانت الرِّحلة النَّقديَّة الَّتي خُضْتُها عبر صفحات هذه الدراسة تهدف إلى رصد مكانة **عبد الفتاح كيليطو** في النَّقد المغربيِّ والعربيِّ وواقع العلوم الإنسانيَّة في الجامعة المغربيَّة، فإنَّ ما يتجلَّى بوضوح هو أنَّه أعاد للنَّصِّ التُّراثيِّ مكانته اللَّائقة؛ ليس مجرد شاهدًا تاريخيًّا أو وثيقة جامدة، بل كيانٌ لغويٌّ حيٌّ، متحرِّك داخليًّا، يُربك القارئ ويُثيره للتَّأمُّل. لقد جسَّد مشروعه نقدًا أدبيًّا متوازنًا، إذ حرَّر القراءة من قيود الإيديولوجيا ومن أعباء القوالب الجامدة، دون أن يُهمِّش السِّياق التَّاريخيَّ أو الثَّقافيَّ للنَّصِّ. حيث تمكَّن من الجمع بين الأصالة والمعاصرة، وبين الصَّنعة اللُّغويَّة للتُّراث ومرونة أدوات التَّحليل الحديثة؛ فصارت القراءة فعلًا معرفيًّا حيًّا يشتغل داخل النَّصِّ ومع القارئ معًا.

ورغم ذلك، فإنَّ طرح **كيليطو** لم يخلُ من مواضع القصور؛ ذلك أن رفضه لتقديم خلاصات منهجيَّة أو استنتاجات تحليليَّة قابلة للتَّكرار قد يُربك الباحث غير المتمرِّس، ويتركه بلا أرضية صلبة، وهو ما أدركه بعض النقَّاد العرب والمغاربة أحيانًا، لكن دون أن يقلِّل من أصالة مشروعه أو من قيمته النَّقديَّة.

ومن هذا كلِّه، يبرز أنَّ مشروع **كيليطو** نموذجٌ متقدِّم لتجديد قراءة التُّراث في المغرب، إذ يجعل من القراءة نفسها غاية ومنطلقًا، مع المحافظة على التَّوازن بين الجمال، والتَّأويل، والمعرفة التُّراثيَّة، وهو بذلك يفتح آفاقًا مستقبليَّة للبحث النَّقديِّ الجامعيِّ، وتتيح للباحث المغربيِّ أن يدمج بين الأصالة التُّراثيَّة ومتطلَّبات النَّقد المعاصر، ويعيد النُّصوص القديمة إلى الحياة في ضوء فهم نقديٍّ متجدِّد وحيٍّ.

ويفتح هذا البحث، في ضوء مشروع **كيليطو**، عددًا من الأسئلة التي تستحقّ مزيدًا من النَّظر في الدِّراسات النَّقديَّة المغربيَّة المقبلة، من أبرزها:

- كيف يمكن الإفادة من أخلاقيَّة القراءة التي يقترحها **كيليطو** داخل الدَّرس الجامعيِّ، دون تحويلها إلى وصفة منهجيَّة جامدة؟
- إلى أيِّ حدٍّ يمكن تطوير قراءة تراثيَّة تجمع بين الحسِّ التَّأويليِّ والجماليَّة النَّصِّيَّة من جهة، والانتباه للأسئلة الثَّقافيَّة والتَّاريخيَّة من جهة أخرى؟
- هل يمكن الحديث عن تقليد نقديٍّ مغربيٍّ يتأسَّس على القراءة بوصفها تجربة معرفيَّة، لا على المنهج بوصفه سلطة تفسيريَّة؟
- ما موقع التُّراث العربيِّ مستقبلًا، داخل العلوم الإنسانيَّة المغربيَّة إذا أُعيدت قراءته بوصفه نصًّا حيًّا، لا مجرَّد ذاكرة ثقافيَّة أو مادَّة تعليميَّة؟

تلك أسئلة تستدعي مزيدا من البحث والنقاش، وتوحي بأنَّ مشروع **كيليطو** لا يزال مفتوحًا على إمكانات بحثيَّة لم تُستنفد بعد، وأنَّ راهن النَّقد المغربيِّ يظلّ في حاجة إلى مثل هذا التَّداول الإبداعي بين الانضباط المعرفي وحرِّيَّة التَّأويل.

ختامًا، لا يَنظر **كيليطو** إلى التُّراث بوصفه ذاكرة جامدة، بل بوصفه حقلًا معرفيًّا حيًّا، يظلّ مفتوحًا أمام كلِّ قراءة، ويتطلَّب من الباحثين احترام حركيَّته، والتَّعامل معه بوعي نقديٍّ دقيق، يوازن بين التَّقدير للأصالة والانفتاح على المعاصرة، وهو ما يمثِّل الرِّهان الأسمى للنَّقد الأدبيِّ المغربيِّ وللجامعة المغربيَّة في القرن الحادي والعشرين.

المصادر والمراجع

أولًا: المصادر والمراجع العربيَّة

- برَّادة، محمد. **أسئلة الرِّواية**، الدار البيضاء: دار توبقال، 1996.
- بنعبد العالي، عبد السَّلام. **الفلسفة والترجمة**، الدار البيضاء: دار توبقال، 2004.
- بنِّيس، محمد. **ظاهرة الشِّعر المعاصر في المغرب**، الدار البيضاء: دار الثقافة، 1979.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. **البيان والتَّبيين**، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، د.ت.
- الجرجاني، عبد القاهر. **دلائل الإعجاز**، تحقيق محمود شاكر، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1984.
- حسين، طه. **في الشِّعر الجاهلي**، القاهرة: دار المعارف، 1926.
- حسين، طه. **حديث الأربعاء**، ج 1، القاهرة: دار المعارف، 1925.
- العروي، عبد الله. **مفهوم التاريخ**، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1992.
- عصفور، جابر. **مفهوم الشِّعر**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994.
- عصفور، جابر. **مفهوم النَّقد**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000.
- الغذَّامي، عبد الله. **المرأة واللُّغة**، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1996.
- الغذَّامي، عبد الله. **النَّقد الثَّقافي: قراءة في الأنساق الثَّقافيَّة العربيَّة**، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2000.
- مفتاح، محمد. **دينامية النَّص**، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1987.

ثانيًا: المراجع الأجنبيَّة

أعمال عبد الفتاح كيليطو

- Kilito, Abdelfattah. *Les Séances*. Paris: Sindbad, 1983.
- ———. *Lire le récit arabe*. Paris: Maspero, 1983.
- ———. *Littérature et étrangeté*. Paris: La Découverte, 1980.
- ———. *L'Auteur et ses doubles*. Paris: Seuil, 1985.
- ———. *La littérature et les Arabes*. Paris: Seuil, 1992.
- ———. *Le Même et l'Autre*. Casablanca: La Croisée des chemins, 2005.
- ———. *Je parle toutes les langues mais en arabe*. Paris: Actes Sud, 2013.

الأعمال الأخرى

• Allen, Roger. *The Arabic Literary Heritage*. Cambridge: Cambridge University Press, 1998.

• Barthes, Roland. *"Introduction à l'analyse structurale des récits."* Communications, no. 8, 1966.

• ———. *Le plaisir du texte*. Paris: Seuil, 1973.

• Boullata, Issa J. *Trends and Issues in Contemporary Arab Thought*. Albany: SUNY Press, 2009.

• Foucault, Michel. *L'ordre du discours*. Paris: Gallimard, 1971.

• Genette, Gérard. *Figures III*. Paris: Seuil, 1972.

• Hall, Stuart. *Representation*. London: Sage, 1997.

• Harris, Roy. *Structuralism and Literary Analysis*. London: Routledge, 1992.

• Khatibi, Abdelkebir. *Figures de l'étranger*. Paris: Denoël, 1987.

• Rimmon-Kenan, Shlomith. *Narrative Fiction*. London: Routledge, 2002.

• Ricœur, Paul. *Temps et récit*, vol. 1. Paris: Seuil, 1983.